١٧ رَمضَان

جُرجي زيدَان

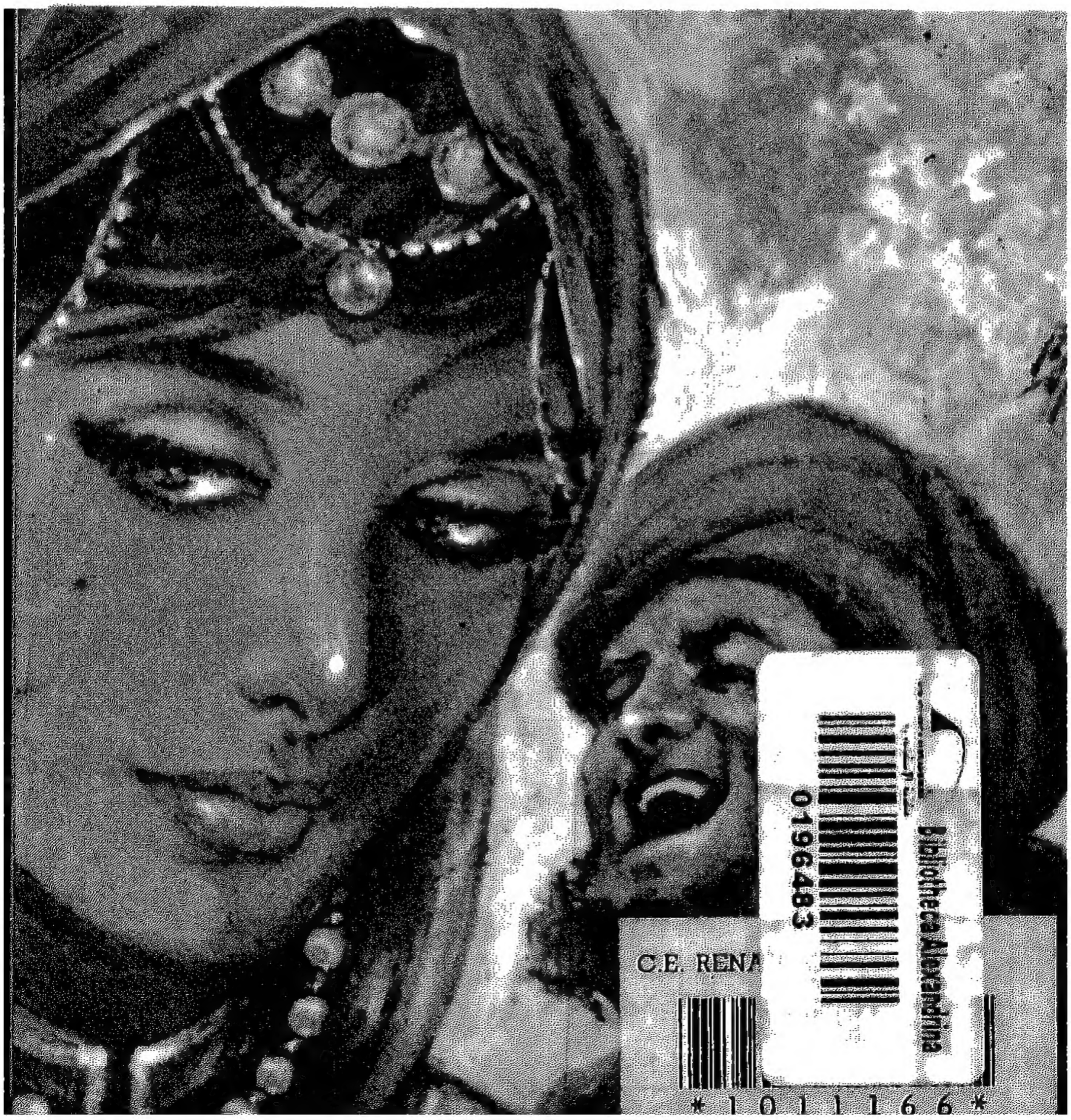

١٧ رمضان

تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج
تتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان ،
مستثار بني امية بالخلافة وخروجها من اهل البيت

COMITÉ D'ÉTABLISSEMENT
R.N.U.R. FLINS
Bibliothèque
78410 AUBERGENVILLE
N° Inventaire Z.8.6.4.6.....
Cote Z.A.X.R.....85.3.14.

المكتبة الادبية - بيروت

آبطال الرواية

✲ على بن ابى طالب	: رابع الخلفاء الراشدين
✲ معاوية بن ابى سفيان	: اول ملوك الدولة الاموية
✲ عمرو بن العاص	: والى مصر
✲ قطام بنت عدى	: غادة الكوفة
✲ العجوز لبابة	: مربية قطام
✲ سعيد الاموى	: عاشق قطام
✲ عبد الرحمن بن ملجم	: قاتل الامام على
✲ الحسن والحسين	: ابنا على
✲ عمرو بن بكر	: المتآمر لقتل عمرو بن العاص
✲ البرك بن عبد الله التميمى	: المتآمر لقتل معاوية

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

- ✲ تاريخ ابن الأثير
- ✲ التقويم العام
- ✲ تاريخ المقريزى
- ✲ السيرة الحلبية
- ✲ أسد الغابة
- ✲ مروج الذهب للمسعودى
- ✲ تاريخ المقريزى
- ✲ ابن هشام

فذلكة تاريخية

الخوارج جماعة من رجال الامام على بن ابى طالب نقموا عليه قبوله التحكيم على أثر وقعة صفين ، وكانوا قبل ذلك فى مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم أدى الى خروج الخلافة من يده الى يد معاوية بن ابى سفيان نقضوا بيعته ونبذوا طاعته ، وطمعوا فيها لأنفسهم فبايعوا واحدا منهم يدعى عبد الله بن وهب ، وحاربوا تحت رايته زمنا

ولما صدر حكم الحكمين بخلع على وتثبيت معاوية اشتد ازر معاوية ، وبويع بالخلافة فى الشام

وكان الخوارج ما زالوا فى بدء أمرهم ، فأخذ على يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو فى ذلك جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم ، فنصح لهم بالطاعة وبين لهم انه لم يخطىء بقبول التحكيم وانه لم يقبله الا اجابة لطلبهم ، ولكنهم لم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية ، فحاربهم فى مواقع عدة أشهرها موقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من بغداد ، وقد انتصر فيها عليهم نصرا مبينا وشتت شملهم . على انهم عادوا الى الاجتماع فى الخفاء

وفى سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر ، وقتل محمد بن ابى بكر عاملها ، وتولاها باسم معاوية . فأصبح معاوية خليفة فى مصر والشام ، وجعل مقامه دمشق . وبقى على بن ابى طالب خليفة فى العراق والجزيرة والحجاز واليمن ، وجعل مقامه الكوفة .

ثم أخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام على يبغى فتحها ليستأثر بالخلافة . فأنفذ جندا الى مكة ، وآخر الى اليمن ، وثالثا الى الجزيرة ، وظلوا يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا اربا حتى دخلت سنة اربعين للهجرة . فتأهب الامام على للخروج الى قتال معاوية ، فى جيش قوامه اربعون الفا من انصاره بايعوه على الفور أو الموت . وفيما هو فى ذلك فاجأه الغدر فمات مقتولا كما سترى تفصيل ذلك فى هذه الرواية

غادة الكوفة

الكوفة مدينة اسلامية ، مصرها سعد بن أبى وقاص أحد كبار الصحابة ، فى السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح العراق ، وكان عمر قد أشار عليه « بأن يقيم فى مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا أراد ان يقدم اليه على راحلته قدم » . فبنى الكوفة غربى الفرات على شاطىء بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة ، بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلا

وكان بناؤها فى أول امرها بالقصب ، فاصابها حريق فاستأذنوا الخليفة فى بنائها باللبن فقال : « افعلوا ، ولا يزيدن احدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة يلزمكم الدولة » . ففعلوا وجعلوا طرقها نوعين : المناهج وعرض كل منها عشرون ذراعا ، والأزقة وعرض كل منها سبع اذرع . وما بين المناهج أماكن البناء وقدرها اربعون ذراعا ، والقطائع وقدرها ستون ذراعا

وكان المسجد أول شيء خطوه فيها ، فوقف فى وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم ، ثم اقيمت المبانى فيما وراء السهام ، وترك ما دونها للمسجد وساحته . وبنوا فى مقدمة المسجد ظلة او رواقا أقاموه على اساطين من رخام كان الأكاسرة قد جلبوها من اخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقا لئلا يقتحمه أحد ببنيان ، وبنوا لسعد بن أبى وقاص قصرا بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد

. وقد زاد عمران الكوفة حين اتخذها الامام على مقرا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ اذ تقاطر اليها المسلمون من جميع الأنحاء ، وتكاثرت فيها الأبنية وعمرت الاسواق وانشئت حولها الحدائق والبساتين مما يلى بحيراتها

وكان فى ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقة من نخيل ، حولها سور من جذوع النخل يحيط بها الا من جهة البحيرة . وفى وسط الحديقة بيت مبنى من اللبن ، يدل جمال بنائه على ان سكانه من اهل اليسار ، وقد يخيل اليك اذا دخلت حديقته انه مسكن بعض الأمراء ذوى الخدم والحشم ، لما يرى بين نخيلها من آثار المعالف والأوتاد والسلاسل والقيود . ولتأكل

جذوع بعض النخيل من كثرة شد الأمراس اليها وتعود الخيل تقشيرها وهى مشدودة اليها

ففى ليلة من اوائل السنة الاربعين للهجرة ، والوقت خريف ، وقد نضج الثمر على نخيله وليس من يقطفه ، فتساقط بعضه على الارض وليس من من يلتقطه . كان القمر بدراً وقد اطل من وراء الآكام فارسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة ، وكان الجو هادئا والسكوت سائداً لبعد المكان عن المدينة وضوضائها ، فلم يكن يسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقزة القر . وربما هب النسيم فاسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الانس ودلائل الابهة

وهناك فى المنزل المؤلف من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض ، وقد فرشت ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز ، وضعت فى احداها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز ، ووضع فى بعض جوانبها مصباح ضعيف النور ، وجلست على احدى الوسائد فتاة فى مقتبل العمر اشرق وجهها بماء الشباب ، وقد حلت شعرها الاسود فارسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها ، وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زاد عينيها كحلا واشراقا . ولكن عينيها الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع فاخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما انف دقيق مستقيم تحته فم صغير . فاذا ازداد انسكاب الدمع تلقته باطراف جدائلها او بأحد كميها . وكانت لابسة جلبابا اسود زادها جمالا وفتنة . وكان هذه الفادة استانست بوحدتها فاطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا حسيب فاخذت تندب فقيدين عزيزين قتلا فى يوم واحد

تلك هى « قطام بنت شحنة بن عدى » من قبيلة الرباب ، فتاة الكوفة الفتانة التى ذاع صيتها فى الآفاق وسمع بجمالها القاصى والدانى حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب امثالهم ، وشخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب ، فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هما ولم تذق غما حتى بليت بقتل ابيها واخيها معا فى وقعة النهروان ، اذ كانا من جملة الخوارج الذين نقموا على الامام على لقبوله التحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا فى جملة من حاربه

وكانت قطام ثابتة الجاش شديدة الميل الى الانتقام ذات حيلة ودهاء ، ما انفكت منذ قتل ابيها واخيها وهى تندبهما وتلتمس الانتقام لهما . ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الامام على ومجتمع انصاره وشيعته . فاقامت بمنزلها هذا فى ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربى فى اهلها منذ صباه ، وقد هجرها بعد ان بليت بمصيبتها جميع

الخدم والاعوان ما عداه . وكانت ترتاح الى بث شكواها له ، وكان هو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام

وفي اصيل ذلك اليوم-كانت قد انفذته ليستقدم لها عجوزا من مولدات الكوفة ، كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة اظفارها وهي تحن اليها حنينها الى امها ، فلما طال غيابه وسدل الليل نقابا ولم يعد ، شغلت بذلك عن أحزانها وهواجسها وهي وحيدة في هذا البيت . ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت اباها واخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

▭

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان ، فاجفلت ولكنها استانست به فوقفت واسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة ، شديد السواد ، خفيف العضل ، سريع الحركة ، جاحظ العينين ، افطس الانف ، عظيم الوجنتين ، بارز الأسنان يزيدها بروزا تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا . وكان يتفانى في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام . فقالت : « ما الذي اخرك يا ريحان وانت تعلم اني وحيدة هنا . اين العجوز لبابة ؟ »

قال : « انها قادمة على اثري »

قالت : « وما سبب غيابك حتى الآن ؟ »

قال : « كنت في انتظارها وهي تخاطب شابا وتجادله ... »

قالت : « ومن هو هذا الشاب ؟ »

قال : « لا ادري . : وهذه هي قد اقبلت وستقص عليك الخبر مفصلا »

وما اتم كلامه حتى دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصرا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب ، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الأسنان ، مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود تجره وراءها لطوله وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها واخذت تخفف عنها وتقول : « لا بأس عليك يا ابنتي ، اعذريني لابطائي في الحضور »

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول : « ما الذي يشغلك عني يا خالة وانت تعلمين ان ليس لي معز في احزاني سواك »

قالت : « هوني عليك يا قطام واستريحي ، فقد جئتك بالفرج باذن الله »

قالت : « من اين ياتيني الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام ؟ »

قالت ذلك وحرقت اسنانها وهى تتشاغل بجمع شعرها وارساله وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وارسلته على كتفيها فبانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت الى العجوز كانها تسالها الايضاح

فضحكت العجوز وهى تنظر اليها ، ثم كفت عن ضحكها فجاة وكانها تذكرت امرا محزنا فاستاءت قطام من ضحكها وهى تبكى وقالت : « ما بالك تضحكين ؟ اتهزئين بكلامى . انى والله لا اقنع بما دون الانتقام »

فامسكتها العجوز بيدها واقعدتها على الوسادة وجلست الى جانبها ، ونظرت الى ريحان نظرة فهم منها انها تريد خروجه لتخلو الى قطام. فخرج

فلبثت قطام تنتظر ما تقوله العجوز . فاذا بها تظل كانها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت : « وماذا تريدين يا قطام ؟ »

قالت : « اريد ان آثار لابى واخى اللذين قتلهما على ظلما ، ولا بد لى من الانتقام »

قالت العجوز : « ما قولك فى انى وجدت لك من ياخذ لك بثارك ؟ »

قالت : « من هو ؟ قولى »

قالت : « اصبرى ولا تكونى لجوجة . اتعرفين سعيدا ؟ »

قالت : « واى سعيد ؟ » . قالت : « سعيد الاموى الشاب الجميل الواقع فى هواك »

قالت : « دعينا من الحب والغرام وحدثينى عن الانتقام »

قالت : « سبحان الله ! اجيبينى عن سؤالى . الا تعرفين هذا الشاب المغرم بك ، المفتون بسواد عينيك ؟ »

فتململت وقالت : « نعم اعرفه ، وماذا فى معرفته ؟ . بالله عليك لاتذكرى الغرام ، انى لا اشعر بعاطفة الحب ، ولايهمنى احبنى الناس ام ابغضونى »

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت : « يا للعجب ! . ما اكثر لجاجتك . اذا كنت تعرفين سعيدا هذا فهل تحبينه ؟ »

فاجابت على الفور : « لا . لا . لا احبه ، ولا احب احدا ان قلبى فى شاغل عن الحب بالبغض . انى ابغض بعض الناس ولا احب احدا »

قالت : « اذا كان لابد من الانتقام فيجب ان تحبى سعيدا »

قالت : « كيف احبه وليس فى قلبى موضع لغير البغض والحقد . انى حاقدة ناقمة »

قالت : « انا اعلم ذلك ، ولكن احبى سعيدا ولو الى حين وهو ينتقم لك »

فبغنت قطام ، ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس فيها لتتحقق انها تجد

ولا تهزل ، فلما آنست الجد فى لهجتها قالت : « هل تقولين حقا ؟. وهل سعيد يرضى أن يركب هذا المركب الخشن ؟ »

قالت : « انى أجعله يركبه ، فان لم يكن أهـلا له فهو ليس أهلا لحبـك . ما رايك ؟ »

فصمتت هنيهة ثم قالت : « أحبـه ؟ .. نعم أحبه اذا كان الامر كذلك ولو الى أجل قريب . ولكننى لا اظنه أهلا لهذا العمل ، بل لا أحسبه يقدم عليه . ولكن قولى لى هل تتكلمين من عند نفسك أم سمعت ذلك منه ؟ »

فاعتدلت العجوز فى مجلسها ، ونظرت الى قطام وقالت : « اعلمى ياحبيبتى ان سعيدا هذا قد علق بك واحبك منذ بضعة أعوام ، ولكنه لم يكن يتجرأ على مخاطبـة أبيك فى الامر ، لأن أباك كان يومئـذ فى جمـلة القائمين بنصرة على . وسعيد كما تعلمين أموى . اى انه ممن نقموا على (على) وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا خطبك من أبيك يومئذ فلن ينال غير الفشل . أما بعد ان خرج ابوك على خلافة على ، ونبذ طاعته فى جملة من خرجوا عليه بعد التحكيم ، فقد حدثت سعيدا نفسه بأن يخطبك ، فكلمنى فى شأنك مرارا . ولكن أباك كان مشغولا بمحاربة على وشيعته فلم اتمكن من التوسط له . فلما علم بقتله وقتـل أخيك . واحسرتاه عليهما (وتنهدت وهى تتظاهر بمسح دموعها) عاد الى مخاطبتى فى ذلك . وقد كنت أسوفه لعلمى بحزنك الشديد ، ولكنه لم يزل يتردد على ويستنهضنى واعدا بأن يبذل كل مرتخص وغال فى سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل ، الى ان جاءنى اليوم واعاد الكرة والح كثيرا ، فلمحت له الى انه اذا طمع فى رضاك ، فلاسبيل الى ذلك سوى الانتقام لأبيك واخيك ، وقد آنست منه ارتياحا فاطلت الـكلام معه وريحان فى انتظارى ، وهذا هو سبب غيابى عنك . فما قولك ؟ »

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت : « وهل ترينـه يفى بالعهد ، أو يستطيع قتل على بن ابى طالب . انى لا اقبـل مهرا اقل من ذلك »

قالت : « اظنه يقبل ، وارى أن أستقدمه اليك ، ونظرا الى ما أعهـده فيك من المهارة لا اشك فى انه يأخذ على نفسه العهد أن يقوم بكل ما تريدينه ، ولا سيما اذا اظهرت له ميلا ، وذكرت له انك تحبينه ، وتفننت فى اساليب الدلال والتمنع ؛ مشترطة انك لا تتزوجين منه الا بعد قتل على . فاذا عاهدك على هذا صبرنا حتى يقتله ، فاذا لم يفعل ، أو لقى حتفه ، كان دمه على راسـه والسلام . ما قولك ؟ »

فاشرق وجه قطام وارتاحت الى هـذا الراى وقالت : « لاباس بما اشرت به . أستقدميه لنرى ما يكون . ولكن لاتنسى ان تذكرى له انى لم اقبل بعد، وبالغى فى وصف تمنعى ، وعلى بعدئذ ان أكمل الحيلة »

فاغرقت العجوز فى ضحكها وقالت : « سامحك الله يا قطام ، الا تزالين تحسبيننى ساذجة ، وهل تجهلين اين قضيت هذه الشيبة ؟ انى قضيت عمرى فى مثل هذه الشؤون ، فكم زوجت من رجال ، وكم اقنعت بالزواج نساء كان قبولهن اياه ضربا من المحال . لاتخافى على ، كما انى لا اخاف عليك» . قالت ذلك ونادت ريحان فأسرع اليها . فقالت له : « هل تعرف الشاب الذى كان عندى الليلة ؟ »

قال : « نعم أعرفه » . قالت : « سر اليه ، انه ما زال فى المنزل حيث رايتنا الليلة ، وقل له : (ان خالتك لبابة تدعوك اليها) .. »

قال : « واذا ابى ، فماذا اقول له ؟ »

قالت : « لا اخاله يأبى ، بل سيسبقك فى المجيء ، فاذهب وادعه » . قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

▭

كان سعيد شابا امويا فى حوالى الثلاثين من عمره ، توفى ابوه وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده فى منزل الخليفة عثمان وكانا من اخلص مريديه . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده فى مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت موقعة الجمل كان سعيد فى جملة رجال ام المؤمنين ، وظل جده مقيما بمكة لشيخوخته . فلما فشل جند ام المؤمنين وعادت الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لموقعة صفين

ولكنه كان يتردد على الكوفة ، وكان يسمع بقطام هذه وجمالها ، وقد رآها مرارا وهى بالخمار فوقعت من نفسه موقعا عظيما ولكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها ، لان اباها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام على ، فلم يكن ليزوج ابنته بأموى يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام على بعد التحكيم ، استبشر سعيد وامل نيل مرامه ، ولكنه لم يتمكن من السعى فى طلبها الا بعد مقتل ابيها واخيها . فجاء الى لبابة ووسطها فى الامر ، فاستخدمت هذه كل دهائها فى اغرائه بقتل على ، وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لاتقل عنها دهاء ومكرا

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار ، وبخاصة فيما يتعلق بدهاء العجائز ، ولكنه كان جميل الصورة معجبا بجماله وقد اعمى غرامه بصيرته فلم يعد يرى غير قطام او يحلم الا بها . فلما جاء العجوز فى تلك الليلة وخاطبها فى شأنها واظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما فى وسعه من الوعود فى سبيل ارضائها ، واغرى العجوز بكل ما يرضيها من المال والحلى فوعدته ان تسعى فى ترغيبها . ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار

فلمـا جاءه العبـد يدعوه اليها خفق قلبـه وهرول مسرعا يتعثر باذياله فاخترق اسواق الكوفة وهو لايرى شيئا مما فيها لاضطرابه وتهيبه اجتماعه بقطام منى قلبه وغاية مرامه ، فكان اذا تصور رضـاءها اشرق وجهه وطـار فرحا . ثم يعترض تصوره ما آنسه فى حديث العجوز من ان الفتـاة تتمنع ، ويتذكر مابدرمنه من الوعد بالانتقام، فتنقبض نفسه ويضطرب لهول الموقف . على ان هيامه كان يهون عليه كل عسير ويصور له المحال ممكنا . فخيل اليه ان قطام اذا رات جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لاتلبث ان تقع فى هواه وتغضى عن امر الانتقام

وفى ذلك ومثله قطع طريقه ، وريحان يخطو امامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الابطاء فى مسيره لئلا يسبق سعيدا ولـكنه ينسى ويعود الى الاسراع ، فاذا تنبه الى انه قد سبقه عاد يمشى الهوينى حتى يلحق به . كل هذا وسعيد فى شغل باحلامه وامانيه

ولماجاوزا المدينة، آنساسكوتا لايسمع فيه الا صوت الحصى تجت اقدامهما ، والـكوفة كثيرة الحصى والرمال ، حتى وصـلا الى باب البسـتان ودخلا بين النخيل ، فقال ريحان : « امهلنى يامولاى ريثما ادخل المنزل ثم اعود اليك »

فظل سعيد يتمشى بين النخيل ، وهو يتشاغل برؤية ظلالها ، وبالاستماع لنقيق الضفادع على شاطىء البحيرة ، بينما يهيىء نفسه لمقابلة قطام ، فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته ، وينفض جبته . ويصلح وضعها

ولما طال انتظاره قلق وحدثته نفسه بان يستـاذن فى الدخول الى الدار . وفيما هو يهم بذلك سمع حركة ومشيا ، وبعد هنيهة ظهر له نور عند الباب وسمع ريحان يناديه ، فهرول وقلبـه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة ، فعثرت رجله بحبل من الياف النخيل كان مشدودا الى جذع نخلة ، فكاد يقع ، ثم تقدم نحو باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبـة ، ومشت امامه وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت به حجرة قطـام ، ودعته للجلوس على وسادة وجلست هى على وسادة اخرى ، وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطام هناك ، فلما لم يرها قلق ، وزاد فى قلقه سكوت لبابة عن الحديث وجودها . فقال : « مالى اراك ساكتة ياخالة ، الم ترسلى الى بالمجىء ؟ » . قالت : « بلى »

قال : « واين قطام ؟ » . فتنهدت وقالت : « هى هنا فى الغرفة الاخرى ، وسنذهب اليها بعد قليل »

قال : « اراك فى قلق . ما الذى جرى . قولى »

قالت : « لم يحدث شيء » . وتظاهرت بانها تكتم خبرا ، فقال : « ولكنى اراك كئيبة ، اخبرينى ، لقد نفد صبرى »

قالت : « لاتقلق ياولدى ، ليس هناك مايدعو الى القلق . غير انى مللت من

استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها ، فلم ار منهـا الا البكاء والنحيب ولم اسـمع الا قولها : (الانتقام . الانتقام) . وكل من يخاطبها فى غير هـذا الموضوع لايسمع منها جوابا »

قال : « ألم تذكرى لها شيئا من حديثى معك ؟ »

قالت : « كيف لا ، اننى لو لم اذكر لها اسمك مشفوعا بوعدك بالانتقام لمـا اجابتنى » . ثم ادنت فمها من اذنه وقالت : « ولكننى آنست من خلال تمنعها انها ترتاح الى ذكر اسمك ، واظنها تحبك ولكنها مأخوذة شغلهـا الانتقام عن الحب ، ولذلك سرت لما اخبرتها بوعدك وان لم تصـدق قولى كأنها تحسبنى اعبث بها ، اولعلها استبعدت ذلك منك أوخشيت رجوعك فيه لجهلها ما انت مفطور عليه من الحمية وكرم الاخلاق »

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده . ثم شغلت نفسها بالسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل من اثر الشيخوخة ، وصبرت لترى مايبدو منه قبل اتمام الحديث

اما هو فأثر قولها فيه وهاج ما فى قلبه فقال لها : « أننى لا الوم قطام فانها لاتعرفنى بعد ، فهى معذورة اذا اساءت الظن بى . ولكن أين هى؟ ارينى اياها فأؤكد لها وعدى فتعلم من هو سعيد » . قالت : « هى هنا »

▭

واخذت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى حجرة تجلس فيهـا قطام على اريكة وهى تبكى وشعرها مخلول . فلمـا رات النور يقترب منهـا اسرعت فضمت شعرها وارسلته الى ظهرها وغطت راسها بنقاب اسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهى تقول : « خففى عنك يا قطـام وارفقى بنفسك واشفقى على شبابك كفاك بكاء ونحيبا . انهضى فسلمى على محبك سعيد . . »

فقطعت قطام كلامها قائلة : « الم اقل لك لاتذكرى الحب والغرام بل اذكرى القتل والانتقام . انى لا احب الا الانتقام ، ومن ينتقم لي فهو الخليق بأن اعطيه قلبى . ولكن . . . »

فتقدم سعيد وقد اصبح بعد رؤية قطام على تلك الحال لايرى شيئا غيرها ولا يبغى الا رضاها وقد شق عليه قولها : (ولكن) لما ينطوى عليه من ضعف ثقتها به ، فقال لها : « ألا ترضين يا قطام ان اكون انا المنتقم لك ؟ »

قالت وهى تظهر عدم الاكتراث : « لا . لا ارضى ان تعرض نفسك لهـذا الامر من اجلى ، فانى اولى منك بركوب هـذا المركب الخشن » . ثم رفعت يدها واشارت بسبابتها الى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصة البكاء : « انا

اقتل قتلة ابى واخى بيدى . انا اقتلهم . انا أقتل عليا وان كنت فتاة . ان حب الانتقـام يقوينى ويشجعنى . ولا حاجة بى الى تعريض سـواى لخطر القتل . انك شاب لايهمك من امر على شيء فكيف تتصـدى لقتله من اجل غيرك ، ذلك لايكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادرا عن شهامة وغيرة حقيقيتين، فازداد رغبة فى الاقدام على ذلك العمل . وقال لها : « كيف تقدمين ياملبحة على هذا الامر وانا بين يديك . لعلك لا ترين فى الكفاءة . وكيف حسبت أننى لا يعنينى قتل على ، ألا تعلمين ان بنى امية يطالبونه جميعا بدم عثمان ؟ فاذا قتلته فانى ارضى قومى فضلا عن ارضاء قطام . ان بذل النفس يسير فى سبيل ارضائك . واذا اذنت لى ان ادعوك حبيبتى فكل شيء هين »

فلما تحققت قطـام وقوعه فى الشرك ، ارادت ان تتمكن من عهـده بصك تستكتبه اياه ، فأمسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه ، فانكشف معصمها عن الاساور والدمالج ، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالا ، ورنت اليه وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . أما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة ، فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط فى الامر . فتظاهرت لبابة بأنها تساعده فى غرضه وقالت لها : « ألم يكفك ماقاله هذا الشهم ؟ ألم أقل لك ان وعده صدق ، وفضلا عن ارضائك بقتل على فهو يرضى عشيرته واهله ايضا ؟ . اعلمى ياقطام أنه لابد من رجل يقتل هذا الخليفة، ومن يسبق الى قتله يكن صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم »

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة : « أنا أعلم انه مقتول لامحالة ، فان لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته أنا بيدى . انظرى الى هذه الحلى فى معصمى واذنى ، انى لم أنزعها ليس لأنى لم أحزن على ابى واخى ، بل لأنى واثقـة من الانتقام لهما ، ومتى أخذت بالثار فقـد احييت القتيلين فكيف أحزن ؟ . أما ما قاله سعيد فمروءة منه ، ولكن الانسان ياخالة عرضة للتردد فلعل سعيدا اذا خرج من عنـدنا يرى رايا آخر ، او يتهيب الامر فيرجع عن الوعد . فأنا لا اريد أن أقيده بعهد أرى انه ربما عاد فندم عليه . ولست أقول هذا استهانة بجرأته ومروءته ، ولا استصعابا لقتل على ، فان قتله من أيسر الامور، ولكنى أخشى أن يكون تقيد سعيد بهذا العهد على غير رغبته »

هم سعيد بأن يجيب قطام ليؤكد لها صـدق وعده ، فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت : « اسمحى لى يا قطام بكلمة اقولها لك . انت لاتعرفين سعيدا بعد ، ولكننى اعرفه واعرف صدقه ، وأنا أسألك بالنيابة عنه : هل تريدين أن يكتب لك عهدا بأنه يفعل كل ما قاله لك ؟ »

فلما سمع سعيد ذكر كتابة العهد تهيب وعظم الامر عليه ، وكانه صحا من سكره لحظة تبين فيها خطر الامر ، على انه ما لبث ان عاد الى سكرة الغرام ، ولا سيما بعد ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد ، فلم يفتها ماجال فى خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بغير ذلك . وارادت ان تحمله على كتابة العهد فقالت للعجوز : « اراك اقمت نفسك نائبة عنه فى امر لاتصح النيابة فيه ، ولعله غير راض به ، وفى سكوته دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ، ولا تعرضى سعيداً للخطر وانت تعلمين ما له من المنزلة فى قلبى ، وان اكن قلما رايته ، فافضل ان اعرض نفسى للخطر ولا اعرضه »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية فى راسه ، فنهض وقال لها : « اتحسبين سكوتى يا قطام عن تردد او خوف ؟ . لا وحبك ، فما انا ممن يضنون بالنفس فى سبيل الحب ، وقد اكون ترددت فى بادىء الراى . واما بعد ان علمت بما لى عندك من المنزلة فانى اكتب العهد ولا ارضى الا بكتابته . هاتوا رقا ومدادا » . فنهضت العجوز مسرعة لاحضار الرق والقلم ، وكانت قد اعدت كل شىء قبل مجيئه

وانتهز سعيد فرصة غيابها وازاح مقعده واصلحه بحيث يواجه قطام . اما هى فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت يتخلله الدلال : « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبى ، ما لنا وللصكوك الا يكفينا القول ؟ »

فما آنس سعيد منها هذا التقرب وسمع قولها : « حبيبى » حتى اخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه فى سبيلها ، وطابت له تلك الخلوة القصيرة وانتشى بمبادلتها اياه عواطف الحب ، واعتقد انه اسعد انسان على وجه الارض بفوزه بحبها له . غير عالم بان قصدها لم يكن سوى اغرائه بقتل على ، وقد اضمرت انه اذا فشل فى مهمته فلن تاسف عليه اذا قتل . وارادت ان يكتب الصك حتى لا يرجع عن وعده

وادركت العجوز ان فى ابطائها وسيلة لاتاحة الفرصة لقطام كى تتمكن من اغرائه ، فابطأت لغير داع ، ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ايل فيه مداد اسود . فلما رآها سعيد ، ورأى الصك فى يدها عاوده الخوف ، وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ، ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده على قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول فى نفسه : « ما اسعدنى بهذا اللقاء ، وما اجمل هذا الحب لولا هذه الشروط » . ولم تترك له قطام فرصة للتردد فقالت للعجوز : « لمن اتيت بهذه الادوات يا خالة ؟ اما زلت تصرين على ان يكتب سعيد عهده ؟ لا . لا اظنه يكتبه » . وابتسمت وهى ترنو اليه ، ثم قالت : « وكانى به ندم على ما فرط منه لا عن جبن او خوف لا سمح الله ، ولكنه راى قطام

لا تستحق هذه العناية ، واراه يقول فى سره : (امن اجل امراة اقتحم مثل هذا الخطر) . » . قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى دلالها نسى كل خطر ، ولم ير له مخرجا من من خجله الا بالمبادرة الى تناول الرق ، فتناوله من يد لبابة وامسك القلم وقد اخذ منه الهيام ماخذا عظيما حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح فى يدها ، فكتب ويده ترتعش ولكنه يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفا واليك نص كتابه :

« انا سعيد بن . . الأموى أعاهد قطام بنت شحنة على قتل على بن أبى طالب مهرا لزواجى بهـا ، فاذا لم افعـل لم اكن كفؤا لها ، وعلى عهد الله وميثاقه كتبه سعيد الأموى »

▭

وما فرغ سعيد من كتابة العهد حتى دفعه الى قطام وهو فخور بما فعل ، ليريها انه ليس جبانا كما ظنته ، ولكنه لم يكد يدفعه اليها حتى شعر بالخطر الذى عرض نفسه له . على انه لم يتبين الخطر جيدا لما حال بينه وبين عقله من غيابة الوجد والهيام

أما قطام فتناولت الرق وقرأته المـاما ، ثم نظرت الى سعيد وقالت : « يظهر أنك كتبت العهد حقيقة ، اليس عارا على قطام أن تأخذ منك صكا على عهد عاهدتها عليه فى مثل هذا الموقف ، كأنك حملت كلامى على محمل الجد ، وقد قلت لك الآن : (انى لا ابالى من يقتـل عليـا ، وانه اذا لم يقتله احد فساقتله انا) . اما وقد كتبته فانى احفظه عندى تذكارا لهذه الليـلة التى اعدها أحسن ليالى العمر . . وارجوان نجتمع قريبا لنيل المرام » . قالت ذلك وفى صوتها رنة الدلال .

فصدق سعيد كلامها واطمأن قلبه ، ولكنه علم بانه لا ينال قطام الا بعد قتل الامام على بن ابى طالب فعاد الأمر الى خطورته ، فانقبضت نفسه وأراد ان ينفرد بنفسه فاستأذن بالخروج . فقالت له قطام : « امكث عندنا . . او اذهب لعلك تهتدى الى سبيل يقرب جمعنا الدائم » . قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه ، ثم تأوهت وودعته ، فخرج سعيد ولبابة تشيعه ، فرأيا ريحانا لايزال ساهرا فى الحديقة يطوف حول المنزل خوفا من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له : « انى اهنئك برضاء هـذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تلهف عليه اهل الكوفة بل سائر اهل العراق ، ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لاتنظر اليك الا وهى تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلا . واما العهد الذى كتبت فليس من الاهمية فى شىء . فهب انك

صادفت خطرا فان قطـام لا ترضى أن تتعرض له » . فودعها ومشى يتعثر باذياله ، وكأنه غادر قلبه عند قطام . فلما انفرد عادت اليه هواجسه فتصور خطورة الامر الذى اقدم عليه . ولما لم يبق له حيلة فى الرجوع عن عهده جعل ينتحل لنفسه اعذارا تخفف قلقه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر . فخيل اليه أنه اذا قتل عليا فانه ينتقم لسائر بنى امية ويفاخرهم جميعا بما لم يستطعه احد منهم . فينال حظوة فى عينى معاوية فضلا عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه فى صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو فى هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومر بجامعها القائم فى وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئا والقمر منيرا فرأى ما يحدق بمنزل الامام على من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بنى هاشم من شيعته . وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت . فخارت قواه وكبر عليه الامر وظل فى طريقه الى منزله يفكر فى حيلة ينال بها ما يريد

▭

وكان منزله فى سوق من اسواق الكوفة فوصل اليه وهو يظن نفسه بعيدا عنه ، وانما نبهه جعجعة جمل رابض فى فنائه فظنه جمله وقد عهده فى مأواه قبل ان يغادر المنزل . فدخل الفناء فرأى جمالا وأناسا كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقى عليه السلام حتى عرف أنه من رجال جده ابى رحاب فذهل ولم يرد التحية وقال له : « ما وراءك ياعبد الله ما الذى جاء بكم ؟ »

قال : « اننا قادمون من عند جدك مولانا ابى رحاب »

قال : « وما الذى حملكم على المجىء ؟ »

قال : « جئناك فى مهمة عاجلة »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « ان ابا رحاب وقد شاخ ووهن عظمه بعثنا يستقدمك اليه »

فذهل وصاح قائلا : « وما الذى اصابه . امريض هو ؟ »

قال : « مرض الشيخوخة فقط ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد امرنا ان نسرع بالمجىء بك اليه »

قال : « وأين يكون هو الآن ؟ »

قال : « فى مكة »

قال : « أأذهب الى مكة ؟ »

قال : « ذلك ما امرنا به فافعل مابدا لك »

فلبث مدة صامتا يفكر ثم مشى وهو يقول : « لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . وصار عبد الله فى اثره حتى دخلا المنزل . ثم التفت سعيد وهو ينزع عبـــاءته وقال : « لابد من امر ذى بال اقلق جدى فدعانى اليه فهـــل تعرفه ؟ »

قال : « لا اخاله دعاك الا ليراك قبل حلول اجله لأنه شـــاخ وضعف وانت تعلم حبه لك وأن ليس له سواك »

قال : « لاحيلة لنا فى الامر فلنبت الليلة ونصبح مسافرين » . وقضى ليلته يفكر فى قطام وسفره

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله ورفاقه جمالهم وهموا بالمسير، فراى سعيد أن يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه وسار يلتمس منزلها وهو فى لباس السفر . فلما اشرف على المنزل تذكر ليلته امس فلم يضطرب لقلقه على جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه . فدخل المنزل فلقى ريحانا فسأله عن قطام . فقال : « انها خرجت فى أمر وسوف تعود »

فقال : « الى اين ذهبت ؟ »

قال : « لا ادرى »

فشغل بال سعيد لخروجها فى الصباح ، وهو لايرى مايدعو فتاة مثلها الى الخروج ، فدبت الغيرة فى قلبه وقال : « وهل ذهبت وحدها ؟ »

قال : « مع لبابة »

قال : « اتظنها تبطىء كثيرا ؟ »

قال : « لا ادرى وربما بقيت الى المساء او الى الغد اذ يخيل الى انها ذهبت الى بعض اهلها خارج الكوفة »

دار الحديث بينهما وسعيـــد يتردد بين ان ينتظر عودتها وبين أن يسير . وتمنى لو يعلم مكانها ليذهب اليها فيودعها ويزيل شيئا من غيرته عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لانتظر ولـكنه خاف أن يطول غيابها اياما . فنوى المسير وقال لريحان : « اقرىء قطام السلام عند رجوعها ، واذكر لها انى شاخص الى مكة لأمر عاجل وقد جئت لوداعها فلم اجدها . وساعود قريبا باذن الله »

وخرج الى رفاقه وساروا قاصـــدين الى مكة وقلبه فى الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه دون أن يرى قطام . ولـكنه التمس عذرا لنفسه ما شغله من أمر جده

أبو رحاب

وكان أبو رحاب جد سعيد شيخا طاعنا فى السن . ربى سعيدا فى حجره بعد موت أبيه ، وكلاهما على دعوة بنى امية فى المطالبة بدم عثمان . وكان غرضهما الانتقام لعثمان لانهما اقاما زمنا طويلا فى منزله . وكان ابو رحاب على حبه لعثمان غير غافل عن أخطائه التى دعت الناس الى اضطهاده ، وكثيرا ماحثه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ له الا قليلا. وعلم ابو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوى الاغراض كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان أبو رحاب وسعيد فى جملة المطالبين بدمه ، ولكنهما عندما عادا من وقعة الجمل قعد ابو رحاب عن المطالبة ، لأنه تحقق أن أصحاب تلك الوقعة انما حاربوا عليا طمعا فى الملك لا غيرة على عثمان

واقام لاجليس له بمكة الا سعيد . وكان سعيد ينوى الانضمام الى جند معاوية فى وقعة صفين فمنعه جده . وكان ابو رحاب يعلم ان سعيدا يحب قطام حبا شديدا وانه سباع للزواج بها . ولذا كان يأذن له فى الذهاب الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة واحس أبو رحاب بضعفه يتزايد ، فأراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصى له بوصية لها علاقة كبرى بشؤون حياته وربما غيرت مجارى اعماله وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلا من خاصته اسمه عبد الله فى وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كانه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا يذهب ما فى نفسه ادراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثا

. اما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلق على ابى رحاب . وكان من شدة حبه لقطام يود بقاء جده حيا ليبشره برضائها وقبولها لانه طالما صرح له برغبته فيها . وكان أبو رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر فى ذلك فرح ثم يعترض فرحه امر العهد وقتل الامام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر اذا قتل عليا علاوة على استرضاء جده لأنه يطفىء ما يجيش فى نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته

قضى اكثر ايام الطريق فى مثل هذه الافكار لايبالى بمن حوله من الرفاق كأنه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه فى طريقه من الجبال

والاودية والصحارى ، وما يمر به من الربوع والاحياء والخيام ، حتى اشرف على مكة من اكمة . فاذا هى فى منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين أبنيتها قيام الملك بين الاعوان. وكانت الشمس قدمالت الى الغروب فأسرع فى مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفا عليه من بأس يصيبه قبل وصوله

ولم يكد يدخل مكة حتى أسدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام ، وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان يطوف بالكعبة قبل الذهاب الى البيت ، ولكنه سارهذه المرة توا الى المنزل وهو مضطرب خوفا على حياة جده

تعرج على منعطف يؤدى الى البيت رأى فيه اناسا عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحياهم وسألهم عن حال أبى رحاب . فلما عرفوه طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلما اطمأن قلب سعيد على جده هدأ روعه وترجل عن ناقته وسلمها الى الخادم ومشى وهو بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر أن يفتحوه له . ومر فى فناء لم ير فيه أحدا وسار توا الى الحجرة التى يقيم بها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الحجرات . وقبل الوصول الى الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشى الهوينى على اصابع قدميه مخافة أن يوقظ المريض من نومه العميق . فعرفه سعيد أنه من بعض ذوى قرباه فسأله عن جده

فاجابه : « انه نائم نوما عميقا وقد مضى عليه بضعة أيام لا ينام فلما احس بالنعاس اخرج الناس من غرفته ولم يبق سواى واوصانى ألا اوقظه الا اذا جئت أنت »

قال : « دعنى ادخل عليه وهو نائم » : قال ذلك ونزع حذاءه ودخل الحجرة يسترق الخطى . فاجتاز العتبة واطل على حجرة مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش. وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك فى صعوده آثارا سوداء على الحائط قرب السراج ، ولو كان لون الحائط نقى البياض لظهرت آثار السناج أكثر جلاء ولكنه كان مدهونا بطين أسمر

تقدم سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق اشفاقا من أن يكون جده قد رقد رقادا أبديا . فمشى على حصير من سعف النخل يكسو أرض الغرفة ، عليه غطاء كالبساط مصنوع من جلد مصقول . وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الارض الى مقعد مستطيل ، ظهره شبكة من نسيج الجلد ، وهى قد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة أو يجعلون فوقها الفرش ، وقد توسد أبو رحاب فراشا رقيقا والتحف ببرد من صوف اسود يغطيه الى أعلى الصدر ، واستلقى على ظهره ويداه مضمومتان تحت

الغطاء وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غورا

فلما اقترب سعيد من جده نظر الى صدره فرآه يتنفس تنفسا هادئا فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفا يتأمل فى مظاهر الهرم . فذكر ان جده كان من كبار الهامة طولا وعرضا ، ولكنه أصبح هيكلا من عظام مكسوا بالجلد . اما وجهه فلم يكن ظاهرا منه الا الانف والجبهة وما بقى منه كان مغطى بالشعر الابيض الناصع . وازداد منظره رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيل الى سعيد لما اشرف على فراش جده أن رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها نتيات مظلمة هى الانف والوجنتان والجبهة ، واما ماخلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان ، واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفى مقدمتها القصبة وقد برزت بروزا عظيما اما الراس فقد كان حليقا او لعله اصلع

وكان شيخنا الراقد قد دله قلبه على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين واجال نظره فى جوانب الغرفة فوقع على سعيد فتبسم . فلما رآه سعيد قد استيقظ جثا امام فراشه وهم بتقبيل يديه . فرفع ابو رحاب ذراعيه وضم سعيدا الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه على كل حركة يريدها. فاطال ابو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى احس بماء ساخن ينحدر على خده علم أنها دموع سخينة ولكنه لم يدر ادموع الحزن هى ام دموع الفرح. على انه خاف عليه فاستاذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فاعانه بيديه ونظر اليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيله قفصا من عظام

واخذ ابو رحاب يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه . ثم مد يده الى سعيد فعلم هذا انه يريد يده فاعطاه اياها ، فامسكها بيديه فاحس سعيد كانها اصابع من حديد ليبس انامله وجفاف جلدها وبرودتها ، وشعربرعشة رعشا متواصلا مما انتابه من الضعف الشديد

▭

وما زال سعيد يشاهد فى جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهورى رنان . فاستانس به واطمأن لسماعه . واول كلمة سمعها منه قوله : « الحمد لله على مجيئك سالما . لقد اطلت الغيبة ياولدى »

قال : « لقدجئتك مسرعا حالما علمت برغبتك فى ذلك؟ كيف انت الآن وبماذا تشعر يا جدي ؟ »

قال : « كنت أحسبنى على شفا الموت ولكننى لما رأيتك وأمسكت يدك شعرت برجوع قواى . فأنا الآن كما تعرفنى من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتى ليمكننى من تزويدك بنصيحة هى آخر ما أتلفظ به فى الحياة »

قال : « انى أشتاق لنصحك كل حين وارجو أن يمد الله فى أجلك لتشهد زواجى بقطام » . تم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد فرأى المكان خاليا فقال بصوت منخفض : « وتفرح بما يسبق ذلك من الانتقام الذى طالما تاقت نفسك اليه »

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين ، وكان قوس الشيخوخة واضحا حولهما ، ثم سمع جده يقول : « أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرنى بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها »

فتبسم وقال : « ألا تذكر يا جداه ما قمنا به منذ أعوام وقام به كل بنى أمية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلما . وهل جرؤ أحد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو لنا الجو ؟ »

فقطب الشيخ جبينه كأنه غضب وقال : « من هو القاتل ومن سيقتله ؟ »

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جده وقال : « ان القاتل على بن ابى طالب وأنا سأقاتله ، وفى ذلك مافيه من الفخر والفضل ، وأتمنى أن يمد الله فى بقائك ليتم الأمر تحت جناحك »

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه ، وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته. ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلا بصوت عنيف : « لا لا . لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البرىء »

فذهل وظن ان جده لم يفهم كلامه فقال له : « تمهل يا جداه ، اى برىء تعنى ؟ انى سأنتقم من على بن ابى طالب ، فكيف تقول انه برىء وأنت أول من دعا الى مطالبته بدم عثمان . يظهر انك اخطأت مرادى »

قال : « كلا انى لم اخطىء مرادك فلا تخطىء انت مرادى . ان عليا برىء . . . انه برىء مما اتهمناه به . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا أراد سوءا بالمسلمين ، ولا ارتكب امرا يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه فى منام لعلمه أن جده كان من اوائل الناقمين على على فكيف انقلب الى الضد . فتبادر الى ذهنه أن جده قد خرف

وأدرك أبو رحاب ماجال فى خاطره فقال له : « لايخالج ذهنك شك فى صحة

عقلى فانى انما اقول ما اقوله عن روية وصدق نظر، ولم استقدمك من العراق الا لهذه الغاية . ولا اقول ذلك جزافا بل اثبته بالبرهان »

ولبث سعيد مذهولا مستغربا لكنه صبر وقال : « وما الذى دعاك الى هذا التغير العظيم . كيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون على بريئا من دم عثمان ؟ بل كيف تعترف انت ببراءته وقد كنت من اوائل متهميه ؟ »

فأشار الشيخ بيده الى سعيد أن يجلس ويهدىء روعه ويصبر ثم قال : « اما ما دعانى الى ذلك فهاتف سمعته يقول ويكرر القول : (ان عليا برىء وانما يتهمه اهل المطامع وذوو الاغراض) . وكنت كيفما توجهت اسمع هذا الصوت يرن فى اذنى حتى اقلق راحتى . فبحثت عن الامر بنفسى وتدبرت ما اعلمه من تاريخ على وعثمان وغيرهما من القائمين بهذه الفتنة ، فوجدت معاوية وسائر بنى امية على ضلال ، بل هم اهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها »

وقطب حاجبيه وقد ابرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيه وبان الجد فى لهجته ، فظل سعيد صامتا لايبدى حراكا لما استولى عليه من الدهشة

على خير من معاوية

ثم أجال الشيخ يده فى لحيته وأصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال : « يزعم معاوية وأصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كانهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله . ولقد يضحكنى مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان ، وهو أول من أراد قتله وسعى فى ذلك حتى افتخر بانه قتله وهو فى فلسطين . فقد علمت انه لما بلغه مقتل عثمان وهو فى وادى السباع قال : (انا قتلته وانا فى وادى السباع) يعنى انه سعى فى قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وابناؤه ماشين الى دمشق يبكون ويقولون : (واعثماناه ! . ننعى الحياء والدين) . انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية ...

« واما معاوية وسائر بنى امية ، فهل تحسبهم شرعوا الاسنة وايقظوا الفتنة مطالبة بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ . اذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحنانا فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب انهم تاخروا عن نجدته كرها كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا اولاده . واذا كانوا يؤمنون بانه قتل ظلما وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه ، فلماذا لم يولوا الخلافة ولدا من اولاده ؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطان ؟

« وهكذا فعل ايضا طلحة والزبير ، فقد قتل عثمان وهما فى المدينة على قيد اذرع منه، فلو ارادا بقاءه لم يعجزهما الدفاع ولكنهم سكتوا عن قتله حتى اذا راوا الخلافة افضت الى على ، تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا : (انه قتل ظلما) .. »

وكان الشيخ يتكلم محاولا خفض صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يلبث حتى يرتفع صوته تتخلله غصات وارتجاج . واما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه تهيبا واحتراما. فلما وصل ابو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه من نفثات ريقه لان الهرم اخلى فكيه من الأسنان ، فانتهز سعيد تلك الفرصة وقال له : « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعا فى الخلافة ولا تحسب عمل على مثل عملهم . وقد كانوا جميعا فى المدينة ؟ وكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم

والباقون ينتظرون ؟ . لماذا لا تحسب ذلك طمعا من على ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية او هى قهقهة تشبه الضحك لعظم ما قام فى نفسه وهو فى آخر يوم من ايام الدنيا ، واول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتم قهقهته حول وجهه الى سعيد وقال : « أتسألنى عن خلافة على وقد كان الاولى بى ان اسائل نفسى ما الذى اعمانى عن حقه فيها من اول الامر ؟ صدق القائل ان الغرض يعمى ويصم ... ان الخلافة لم تكن لأحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاما بعدخديجة ، وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربى فى حجر ابى طالب والد على . وقد كفله ودافع عنه فى بدء الدعوة . وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيرا ماهموا بايذائه وابوطالب يمنعهم بماله من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد على وربى فى حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو فى العاشرة من عمره وذب عن الاسلام بقلبه ويده ولسانه . ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على ايذاء الرسول (صلعم) فى مكة فاعتزم الهجرة ، وكيف ان عليا اقام مقامه فى منزله فتسجى ببردته وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله . هذا عدا حروبه فى الغزوات والسرايا ، فقد شهد معظم المواقع واشهرها ، وبذل نفسه فى الذب عن الاسلام يوم كان معاوية وابوه واخوته فى مكة من الد اعداء الاسلام . ولم يسلموا الا بعد فتح مكة اى بعد قنوطهم من النصر »

▭

كان ابو رحاب يتكلم والعرق يتصبب من جبينه كانه اتى عملا شاقا يجهد نفسه فيه ، وسعيد صامت مطرق لايزل فى دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم يجرؤ على كلام . وطال سكوت جده فهم بسؤاله فرآه يتحفز للكلام فسكت واصغى . فقال ابو رحاب : « اراك دهشت لما سمعته كانك لم تعلمه قبلا ، ولا الومك اذا علمته وتجاهلته فانى اكبر منك سنا واعلم منك فى هذه الشؤون وقد اعمانى الغرض ، وكاننى بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناى وصرت انظر الى الحقيقة كما هى ...

« نعم ان عليا اولى منهم جميعا بالخلافة ، والرسول (صلعم) فضله عليهم جميعا وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة : (انت اخى فى الدنيا والآخرة) . وخاطبه مرة وقال : (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) . ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب كيف لم يتول الخلافة قبل الآن . ولا سيما بعد قول الرسول : (ان عليا منى وانا من على وهو ولى كل مؤمن بعدى) وقوله (صلعم) : (من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من

عاداه) . فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافتـــه ؟ بل كيف لايعجب لتقاعده عن الخلافة الى الآن ؟ »

وكان سعيد مطرقا وقد تغيرت سحنته وتولته الدهشة حتى ظن نفسه فى منام ، وندم على مجيئه لانه اصبح بعد سماع ذلك الكلام حجرا بين مطرقتين لا يدرى ايقوم بعهده لقطام التى ملكت لبه ام يعمل بوصية جده وهو فى آخر ايام الدنيا . فظل صامتا لا يبدى حراكا . وادرك جده ارتياكه ولكنه تجاهل ما يجول فى خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال :

« فانت ترى يا ولدى ان عليا أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابتـــه وصهره ووصية الرسول له ، ثم هو يمتاز عن سائر النـــاس بفضائل تكفى وحدها لتوليه امور المسلمين ، ولا أرى فى معاوية شيئا منها . ان عليا رجل متقشف زاهد فى الدنيا ، رايته مرة انزل سيفه فى السوق فباعه ، فسئل لماذا فعل ذلك ، فقال : (لو كان عندى اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه) . ويكفى قوله فى وصف المؤمنين : (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى . يبس الشفاه من الظمـــا . عمش العيون من البكا) . ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره فى اعزاز الاسلام وفتح الفتوحات ، ولم يلبس ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولاريعا . ومن كان فى مقامه يقدر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضـــياع كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان ، وصاحبنا وابن عمنا معاوية . . . »

ثم سكت الشيخ وتنهد تنهدا عميقا وقال وصوته يعلو بالرغم منه : « ان معاوية خدعنا بتظاهره بنصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا الامام عليـــا ، وقد كنا فى ظلمات من الغرض لا نرى الحق ، واما الآن وقد انقشع الغشاء عن عينى فقد اصبحت ناقما على معاوية ، واذا فكرت فى اعماله واعمال على كدت اتميز غيظا ويتفطر قلبى اسفا على ما نال هـــذا الامام من الاذى . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا فى وقعة الجمل ، فقد اشفق على عدوه اشفاقه على اولاده فاوصى اصـــحابه بالا يلحقوا مدبرا ولا يجهـــزوا على جريح ولا يمسوا النســـاء ولا الاولاد بسوء . وكم اوصى عماله ان يقسطوا فى احكامهم وقد اخبرنى رجل انه سمعه يوصى احد عماله ويقول : (لاتضربن رجلا فى جباية درهم ، ولا تبيعن رزقا ولاكسوة شتاء ولا صيف ، ولا دابة يعتمدون عليها . ولا تقيمن رجلا قائما فى طلب درهم) . ولو اردت ان اسرد لك من هذه الامثلة لضاق بى المقام وقد ينقضى اجلى قبل الفراغ منها وانا انما استمهل ملاك الموت ريثما اتم وصيتى . . فاصغ لى يا ولدى وتأمل عدل الامام على وحلمه

وما ارتكبه معـاوية وعماله من الاعتداء على المسلمين . وخوفا من التطويل وقد تعبت من الكلام ، اذكر لك حادثة قريبة العهد لايزال صـداها يرن فى الآذان .. آه .. آه من القساة اهل المطامع .. اتعرف عبيد الله بن عباس؟ »

قال : « كيف لا اعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم على بن ابى طالب . نعم اعرفه »

قال : « اصغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من وقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص المعلومة ، بايعه اهل الشام وظل على فى العراق . ولم يقنع معاوية بما اوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للفتح يدعون الى بيعته ونقض بيعة على. وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة ، فجاء المدينة وتولاها لأن عاملها فر من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولايزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها ابى موسى الاشعرى من وجهه . فاكره اهلها على البيعة فبايعه اهل مكة مكرهين ، وقد كنت مريضا ولم ار وجهه . على ان عمله هذا لايستوجب ملاما . ولـكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله ابن عباس . فخافه عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان ، فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الا انه امر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنـه صبرا . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد اودعهما عند رجل من كنانة بالبادية ، فأراد قتلهما وبعث فى طلبهما فجاء الكنانى ومعه الطفـلان فلما علم أن بسرا يريد قتلهما ذعر وصـاح قائلا : لم تقتل هـذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما . فلم يكن من ذلك الظالم الا انه قتـل الطفلين والكنانى . وعلمت ان الكنانى دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبنى قول امراة من كنانة رات ابن ارطاة مارا بعد تلك الفاجعة فقالت له : (ياهذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين . والله ما كانوا يقتلون الاطفال فى الجاهلية ولا فى الاسلام . والله يا ابن ارطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة وعقوق الارحام ، لسلطان سوء)

« هذه ياولدى اعمال معاوية وعماله ، فاين هى من اعمال الامام على؟ وكيف تنقم عليه بعد ذلك ، وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟ »

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن اتمام الكلام ومل القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه واتاه بلبن كانوا اعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة ، وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع فى حيرة من حيرة . فذكر

عهده لقطام ولبث صامتا . وكان جده الشيخ يلتفت اليه خلسة يرقب حركاته وسكناته . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر فى قطام واهلها فحول وجهه اليه وهو مستلق وقال : « اظنك تفكر فى قطام واهلهـا الخوارج ، وقد يخيل اليك ان خروجهم من طاعة على قد يطعن فى صدق ماقلته لك ، ولكنهم لم يخرجوا الا طمعا فى الدنيـا فانتحلوا سببـا لايسمعه عاقل الا هزأ بهم وايقن جورهم . خلعوا طاعة على لأنه قبل التحكيم ، وما ذنبه وهم الذين أجبروه على قبوله ؟ وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه ؟ . ولكنهم رأوا معاوية قام فى الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم فى الحكومة لأنفسهم فاجمعوا على نقض البيعة ، ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيسـا منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا فى حروبهم وعادت العائدة عليهم

« وليس فشلهم بالدليل الوحيد على سوء نياتهم ، ولكننى اتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته هى ان الخوارج عند اول خروجهم على على بعد رجوعهم من صفين ، نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق حمارا عليه امرأة ، فدعوه فانتهروه فانزعوه وقالوا له : (من انت؟) . قال : انا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له : أفزعناك ؟ . قال : نعم . قالوا لاروع عليك حدثنا عن أبيك حديثا سمعه من رسول الله . فحدثهم بحديث (انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ويمسى مؤمنا) . قالوا مالهذا الحديث سالناك فما تقول فى ابى بكر وعمر . خائنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول فى عثمان فى اول خلافته وفى آخرها . قال انه محق فى أولها وفى آخرها . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده قال انه أعلم بالله منكم واشد توقيا على دينه وانفذ بصيرة . فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالى الرجال على اسمائها لاعلى أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ماقتلناها احدا . فأخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهى حبلى ، حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فاخذها احدهم فتركها فى فيه ، فقال آخر : اخذتها بغير حلهـا وبغير ثمن فألقاها ، ثم مر بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد فى الارض ، فلقى صاحب الخنزير فارضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما على منكم من بأس انى مسلم ما أحدثت فى الاسلام حدثا ولقد أمنتمونى وقلتم لا روع عليك . فاضجعوه فذبحوه فسال دمه فى الماء واقبلوا الى المرأة فقالت : انى امرأة الا تتقون الله ؟ . فبقروا بطنها . « هذه اعمال اعداء على وهذا هو على فكيف تنتقم عليه وكيف تقتله او تسعى فى قتله ؟ بل كيف نسكت عن قتله ولا تدفع عنه ؟ »

□

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر العهد الذى كتبه على نفسه

بقتل على لئلا يزيد غضبه . فظل ساكتا يفكر فى حيلة ينجو بها من وعده بالتى هى احسن ، فلم يسعفه ذهنه واحس بالتعب الشديد ، ورأى ابا رحاب قد تعب ايضا . فقال له : « لقد اتعبت نفسك ياجداه وانت توصينى فشكرا على رعايتك ، وانى أرى قولك الصواب واطلب اليه تعالى ان يقدرنى على العمل به ، فأسترح الليلة وغدا نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام » . قال ذلك وأكب على يده فقبلها فرآها قد بردت ويبست . فقال له جده : « نم هنيئا يا ولدى فانى أخشى الا يصبح على الصباح فلا بد من كلمة اقولها وهى ختام ما اوصيك به » . قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز : « اذا شئت يا ولدى ان يفارق جدك الدنيا آمنا مطمئنا فعاهده بأن تعمل بما اوصاك . لاتبغ سوءا للامام على واذا رأيت سبيلا للدفاع فادفع عنه بكل قوتك . هل تعاهدنى على ذلك ؟ . . عاهدنى عليه . واجبر قلبى واذكر انى جدك وكافلك ووصيك وانى ربيتك وتعهدتك وانى لا اريد لك الا الخير . هل تعاهدنى على ذلك ؟ قل نعم واجبر قلبى انى قلق عليك . . »

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوه وعطفه عليه فلم يسعه الا الايجاب فعاهده

ولكنه لم يكد يعاهده حتى ذكر عهده لقطام على عكس ذلك فعظم عليه الامر . ورأى جده يميل الى الرقاد فدعا الرجل الموكل به وأمره ان يتعهده فى اثناء رقاده وخرج الى غرفة أخرى ونزع ثيابه والتمس الراحة . اما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من شتى الهواجس

لم يهدأ لسعيد بال ، وازداد الامر خطورة لديه ، وهاله انه رمى نفسه بين عهدين متناقضين . فكان كلما تصور نكوله عن قتل الامام على شعر براحة بال واطمئنان ، ثم يعاوده طيف قطام وبعدها فترتعد فرائصه ويحار فى أمره

▭

وبقى على هذه الحال حتى انتصف الليل لايغمض له جفن ولا يستقر له قرار . فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته وتعمم وخرج الى الخلاء . وكان الظلام مخيما ورقد الناس وليس فى طرق مكة سائر فخفف السكون من اضطرابه ، وسار على غير هدى يفكر فيما هو فيه الى أن شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشيا يبطىء تارة ويسرع اخرى حتى رأى نفسه على باب المسجد الحرام فسرى عنه . فقال فى نفسه : « لأدخلن المسجد اصلى ركعتين لعل الله يوحى الى بما يخفف اضطرابى » . وكان الباب مفتوحا وصحن المسجد خاليا فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته

براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكانا وراءها فاتكأ وعادت اليه هواجسه . فأجال بصره يراقب النجوم السابحة فى الفضاء واخذ بجمال القبة الزرقاء وافكاره تائهة واشتد البرد عليه فادخل راسه فى العباءة يجعلها خمارا . وكان التعب والبرد تغلبا عليه فخدر واستولى عليه النعاس . ولكنه لم يكد يغمض لحظة حتى ابتدرته الاحلام فراى قطام بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان واخذت تمشى نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهم بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلالآن بالدموع ، فتفطر قلبه لرؤيتها على هذه الحال وساءه اعراضها ، فهم بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومنست تنظر اليه شزرا ولسان حالها يقول : « لقد خنت عهدى فما انت اهل لى »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ، ولما ابتعدت عنه هم بان يناديها فافاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدق به

فمسح عينيه ليتبين إنى يقظة هو ام فى منام ، ولما تحقق انه كان حالما حمد الله ولكنه ايقن انه اذا لقى قطام فلن يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتا تتقاذفه الهموم وهو لايهتدى الى حل مقنع ، فنهض راجعا الى المنزل ليرى ماذا حدث لجده . واشتاق ان يأوى الى فراشه بعدما اضناه التعب والبرد . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة عندعودته حتى سمع لغطا خافتا كان اناسا يتسارون . وكان قد وصل الى مقام ابراهيم امام الكعبة فوقف واصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمسا يتكرر كان القادمين يتشاورون فى امر خطير . فانزوى وراء المقام فى مكان لاينتبه اليه احد فى الظلام ، وكان لايرى الا الكعبة وما حولها

١٧ رمضان

وبينما كان سعيد واقفا فى مكانه اذ راى ثلاثة رجال لم يعرف احدا منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء ولم يتمكن من تمييز الوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفا كالخمار اما اتقاء للبرد واما تنكرا

فعجب لأمرهم وخفق قلبه خوفا من انكشاف مخبئه وحذرا من ان يكونوا قد استخفوا ليكيدوا لاحد فاذا علموا به وبافتضاح سره قتلوه ، فبالغ فى انزوائه لايأتى بحركة وخشى ان يداهمه العطس فينفضح امره. اما هم فوصلوا الى باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعا فلو كان القمر طالعا او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيدا ولكنه لم يستطع أن يتبينهم لسواد الليل . على انه لمح من بادى احوالهم وحركاتهم أنهم فى أمر ذى بال ، وكان احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاه الاربعاء وظل هو واقفا ثم جلس القرفصاء وقال : « مالنا ولهؤلاء انهم جبناء ، تعالوا نبدأ نحن بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثانى وكان قصير القامة ممتلىء الجسم : « أنا على رأيك فانه لم ينلنا من الائمة الا الضرر . يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون فى نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعا » . قال ذلك بصوت خافت وفى نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه احد

فقال الرفيق الثالث وكان لايزال ساكتا : « انى لا اذكر يوم النهروان ومن قتل فيه من الابطال حتى يقطر قلبى دما . ان علينا قتلهم لانهم لم يرضوا بالتحكيم »

فابتدره طويلهم وكان اجراهم كلاما واعلاهم صوتا على عكس رفيقيه فقال : « لايجدينا التذمر والتضجر. ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون فى نصرة هؤلاء الائمة ولا نبدى حراكا . هلم نكف المسلمين شرهم »

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم يتآمرون على قتل جماعة من الائمة ، وان الامام عليا واحد منهم ، ولم يعلم من هم الآخرون. فجعل يرتعد فرقا وخوفا من ان ينكشف مكانه ولكن حب الاستطلاع جعله يقدم على علم ما هم فيه ، فبينا هو ينزوى ليختبىء ويتمنى على السحب ان تشترك مع الظلام فى حجبه عن العيون اذا به راغب فى كشف ما يبيتون

وسكت صاحبا الرجل الطويل الجرىء بعد ان انتهى من كلامه . فلما راى صمتهما ابتدرهما قائلا : « وماذا علينا لو متنا ؟ حبذا الموت فى سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . واصل الفتنة ثلاثة يتنازعون على الخلافة وسلطان الدنيا وهم على بن ابى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص. هلم بنا نقتلهم نرح الناس منهم »

فقال الثانى : « انى على رايك من اول الامر فكيف السبيل الى قتلهم وهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر فى وسيلة تضمن لنا الفوز ونامن بها الخطر »

فاسرع الاول فى جوابه وقال : « اراك تتردد كانك تخاف هول الموقف او كانك تتمنى ان يكون نصيبك قتل امام يرهبك . تعالوا نقسم العمل فيما بيننا . تعالوا نقسم ليقتلن كل واحدمنا واحدا من اولئك الثلاثة ، ونعين يوما نباشر العمل فيه معا ، فيكون احدنا فى الكوفة لقتل على ، وآخر فى مصر لقتل عمرو ، والثالث فى الشام لقتل معاوية . وهكذا يقتل كل منا صاحبه فى ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة ، فيختارون خليفة يولونه امورهم وترجع الخلافة الى بساطتها »

فلما سمع سعيد ذلك تهيب الامر واستعظمه ولم يصدق انهم يستطيعونه وبدا له ان قتل على يمهد له رضاء قطام وان لم يكن قتله على يده ، ولكنه تذكر كلام جده وما اوصاه به من الدفاع عن على لبراءته مما ينسبونه اليه فانقبضت نفسه ولكنه افاق من اضطرابه عندما عاد المتآمرون الى الكلام . فلما فرغ اولهم من كلامه ولم ير اقبالا عليه من رفيقيه لم يصبر حتى يسمع ما يقولان وانطلق يقول : « لاتترددوا ولا يهولنكما الامر فهو اسهل مايكون على ذى جراة . وكانى بكما تفكران فى قسمة العمل وتخافان ان يكون نصيب احدنا اصعب مراسا من نصيب الآخر ، فلا تخافا فانى آخذ على عاتقى قتل اكبر هؤلاء الثلاث واشجعهم . انا اقتل عليا بن ابى طالب ، فانى وان يكن مقامى بالفسطاط فانى آتى الكوفة فاقتله » . قال ذلك واقبل حتى دنا من باب الكعبة وامسك بحلقته وقال : « ها انذا امسكت بحلقة الكعبة واقسم بالله وبهذا البيت الحرام لاقتلن عليا بن ابى طالب وابذل فى هذا السبيل ما فى وسعى واشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه متحمسين فامسك كل منهما بحلقة الباب واقسم احدهما ليقتلن معاوية بن أبى سفيان ، والآخر ليقتلن عمرا بن العاص

ولا تسل عن سعيد عندما شهد هذا العهد الخطير وقد تمنى لو عرف المتآمرين ولكنه لم ير سبيلا الى ذلك . ولكنه فهم من سياق الحديث ان الذى آلى على قتل الامام على من اهل فسطاط مصر

ثم عاد الثلاثة الى مجلسهم فقال احدهم وهو السخين القصير : « لقد تعاهدنا

على قتل هؤلاء الائمة ولكننا لم نعين اليوم الذى نفعل فيه ذلك فان لم نعينه فشلنا جميعا »

فقال الثالث : « وهـذا ما اراه انا ايضا لاننـا ان لم نعين اليوم كان المجال واسعا ، ونخشى ان سبق احدنا الآخر ولم ينجح او قتل او قبض عليه ان يخاف الباقيان وينكلا . فلنعين اليوم والساعة »

فقال الاول : « ان الساعة يصعب تعيينها فلنعين الليلة ليتم عملنا فى ليلة واحدة . فى اى الشهور نحن الآن ؟ »

قالا : « فى جمادى »

قال : « فليكن موعدنا رمضان المبارك لنشهد عيد الفطر والمسلمون قد اطمانوا ، واذا قتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالى رمضان »

قال الثانى : « انا اختار الليلة السابعة عشرة من رمضان فما قولكما ؟ »

قالوا : « انها خير ليلة » . ونهضوا وسعيـد يخاف ان يمروا به ويروه ، ولكنهم داروا حول الكعبة كانهم يطوفون بهـا ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر او داروا وتحولوا الى البـاب الذى دخلوا منه . فرفع راسـه ونظر حوله فلم ير احدا ولا سـمع صوتا فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر فيما مر به وهو يحسب نفسه فى حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه فى الليلة التى اوصاه جده فيها بالا يقتـل عليا . ونظر الى الافق فاستقبلته الزهرة تتلالا كانها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جده فراى ان يعود الى المنزل قبل ان يطلع النهار ويخرج الناس . ومشى

▭

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة ان يكون جده قد اصـاب حتفه فى غيابه فدخل الدار فراى السكون مخيما عليها فاستبشر وقصـد الحجرة التى كان جده نائما فيها فراى المصباح مضيئا فاطـل من الباب فراى عبـد الله جالسـا بجانب الفراش وجده نائم . فنظر الى عبـد الله كانه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باش فاطمان قلبه وقبل ان يلقى التحية ابتـدره عبد الله قائلا : « لقد شغلنا بغيابك فان جدك افاق من نومه مرارا وطلب ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد الح كثيرا فى طلبك »

قال : « وكيف هو الآن ؟ »

قال : « فى خير وقد رايناه فى راحة لم يذقها منذ ايام »

ولم يتم عبد الله كلامه حتى راى ابا رحاب يتحرك فى فراشه فتقدم سعيد اليه ففتح عينيه واشار اليه فدنا منه وجثا امامه

فقال أبو رحاب : « أين كنت ياولدى فقد طلبناك فلم نقف لك على أثر ؟ »

قال : « خرجت فى حاجة الى الكعبة واتفق لى حادث تشغلنى عن المجىء حتىَ الآن »

فمد الشيخ يده وقبض على يد سعيد وضغط عليهـا كأنه لا يريد أن يفارقه وسعيد صامت لا يبدى حراكا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر انه انما ضغط على يده بغية الوداع

فترقرقت الدموع فى عينيه والتفت الى عينى جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليه فتفطر قلبه وهم بأن يتكلم فابتدره جده قائلا : « انى لا أزال فى قلق على مستقبلك وأخشى الا تكون قد استوعبت نصيحتى فقد نصحتك وأنا فى آخر أيام الدنيا نصيحة أوحى الى ان ألقيها اليك . وقد تركتنى الليلة غارقا فى بحار الاحلام وكان هاتفا خوفنى من غيابك . هل أنت باق على عهدى ياسعيد ؟ »

قال : « لقـد عاهدتك يا جداه عهدا وثيقا انى لا أسعى بضر للامام على ماحييت ، وأنا باق على عهدى ، وأزيدك علما اننى صادفت فى الكعبة عصبة يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو فى يوم عينوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة الى سعيى »

فبغت الشيخ وحملق وصاح : « ومن هؤلاء ؟ »

فقص سعيد خبره مختصرا وختم كـلامه قائلا : « انى لم أعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفا منهم لأنى أعزل »

قال : « ألم تعرف الذى حلف على قتل الامام على »

قال : « كلا ولكننى علمت من كلامه أنه من مصر ، ويغلب على ظنى أنه من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر فى أمر مهم ، ولحظ سعيـد من شخوص عينيه وذبول أجفانه وانقلاب سحنته أنه تعب . وأما أبو رحاب فتجلد وقال وهو يرتجف ولا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كان لسانه شد برباط : « يا ليتنى كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ... فلو استطعت استمهال أجلى لسعيت فى البحث عنهم فاذا عرفت الساعى فى قتل الامام على أرجعته عن غيه بالبرهان ... انهم والله ظـالموه » . ثم سكت هنيهـة ليستريح وعاد الى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وقد أسرع تنفسه وظهر الاضطراب عليه ، فعلم سعيـد ان جده فى النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وحزن ، ولكنه أصغى لتتمة حديثـه فاذا هو يقول : « وأما أنت يا سعيد فاصغ لقولى واعمل بنصيحتى .. ولا

اقبل منك السكوت عن هذا الامر . . . وانما انت . . . مكلف بالبحث عنه . . . انك مكلف بالبحث عن هذا . . . الرجل فى مصر . . . والشام . . . والعراق حتى تعلم مقره . . . فاما ان تقنعه . . . واما ان تنبىء . . . الامام بأمره . انى . . . القى . . . هذا الامر على عاتقك . . . فاحذر . . . ان تتقاعد عنه . والا فانك . . . قاتل عليا بيدك . . . هذه وصيتى لك ، احتفظ بها ولا تتمهل او تتكاسل . . . والله شاهد . . . على ما اقول . هذه . . . وصيتى الأخيرة بل . . . هذه . . . آخر كلمة أفوه بها فى هذه . . . الحياة الدنيا . . . وكنت مستغربا تأخير اجلى الى . . . الساعة . وكنت احسبنى . . . ميتا منذ أيام ولكن الله . . . انما اراد بذلك . . . ان اكل اليك . . . هذا الامر . . . هذه آخر وصيتى لك ، ابحث . . . عن هذا الرجل وارجعه . . . عن غيه . . . كما ارجعتك . . . ولو اوتيت . . . عمرا ثانيا لقمت فى بنى امية . . . وفى الخوارج خطيبا اصرح ببراءة . . . الامام على ، على رؤوس الاشهاد ، ولكن آه . . . ان الساعة آتية . . . لاريب . . . فيها . . . وها أنذا استودعك . . . الله وآخر ك . . . لم . . . ة أقو . . . لها لك . على . . . على . . . اد . . . فع . . . عن على بيدك . . . وقلبك . . . ولسا . . . ن . . . ك »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها فى اطراف المنزل وارتخت مفاصله ، فافلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد الى جده ، فاذا هو قد اغمض جفنيه ووقف تنفسه . . فجس يده فاذا هى باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فيه فاصبح جسما بلا روح . فاقشعر بدن سعيد ودق يدا بيد وصاح : « واجداه واجداه . ويلاه كلمنى وزدنى نصيحة اخرى . . . » . وما من مجيب . وكان عبد الله قد خرج فعاد ولما رأى أبا رحاب قد مات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

ولم يكن الحزن على موت ابى رحاب شديدا لتوقعهم ذلك منذ ايام . اما حزن سعيد فكان مضاعفا لامتزاجه بالهواجس والاضطراب ولما سمعه من جده وما هو مقيد به من العهود المضادة

▭

وبعد الدفن عاد سعيد الى صحوه وفكر فى حاله فراى نفسه فى مشكلة لايدرى كيف يتخلص منها ، وبعد التأمل الطويل راى انه قد يسهل حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة على فتتنزل عن حقدها ونقمتها ، فلما فتح عليه بذلك توسم خيرا واحس بانفراج الازمة ، فأعمل فكره كيف يستولى على عواطفها ويغير اعتقادها فى الامام حتى تسكت عن طلب ثار ابيها واخيها فخيل اليه ان اقناعها سهل فهدأ روعه

واسرع فى تدبير شؤون ذويه وكان فيهم شـــاب اسمه عبـــد الله رباه ابو رحاب كما ربى سعيـــدا ، وكان يتعزى به ويحبه ، وهو الذى انفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد ، فلما مات أبو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد بأن ياذن له فى مصاحبته وألح فى ذلك كثيرا . فتعجب سعيد لتلك الرغبة فى السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالا الى ذلك

والسبب فى تلك الرغبة أن ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد ، فأرسل أنفاسه الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك قبل موته فأوصى عبد الله هذا بأن يكون له عونا فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده فانه وان يكن شابا مثله ولكنه أعرف بالدهر وبالناس

وبعد أيام ودع سعيد اهله ، واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء الى الكوفة ، وعبد الله لايعرف شيئا من علاقة سعيد بقطام ولا ماتآمر عليه الثلاثة فى المسجد الحرام ، ولكنه فهم من حديث ابى رحاب معه ان سعيدا كان عازما على قتل الامام فأرجعه ابو رحاب عن عزمه . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيدا . فلما اوغلا فى الصحراء بدأ عبد الله حديثا تطرقا منه الى ذكر قتل الامام على ، واستأنس سعيـــد بعبد الله وهو مخلص بفطرته ففتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الى الكوفة حتى أصبح عبد الله عارفا بكل مكنونات قلبه فشاركه فى شعوره بشأن عهده مع قطام ورجوعه عنه ، فثبته على اتباع وصية جده وهون عليه اقناع قطام الى ان قال : « فاذا لم تقنع فاتركها والنســاء كثيرات وانا اختار لك فتاة من اجمل الفتيات خلقـــا وخلقا وارفعهن نسبا لاتقاس بها قطام » . وكانا يتحدثان وهما على ناقتيهما يطويان البيد طيا

فقال سعيد : « لا لا تقل هذا فليس فى النساء اجمل من قطام ولا صبر لى على فراقها بله اغضابهـــا فانك على ما يلوح لى لم تعـــان الحب ولا عرفت سلطانه » . قال ذلك وتنهد . . . وتوقف هنيهة ثم قال : « وهب انى لا أحبها ولست عالق القلب بها فان فى يدها عهدا مكتوبا أخاف اذا اغضبتها أن تشى بى الى على او . . . ولـــكننى واثق بصدق مودتها فهى لاتريد بى سوءا بل تبغى رضاى »

فقال عبد الله : « اذا كانت تحبك كما تقول فليـــس أسهل من اقناعهـــا بالرجوع عن قتل الامام فيتاح لك البحث عن الساعى فى قتله وتردعه عن غيه فاذا لم يرتدع قتلته او نقلت خبره الى الامام ليرى رايه فيه »

فارتاح سعيد الى هذا الرأى

اقبلا على الكوفة والشمس مائلة الى المغيب وكان سعيـــد قد قضى ذلك النهار يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من الذهاب الى بيت قطام اذ لاصبر له على تأجيـــل زيارتها وهو على مقربة منها ، فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة بعد ، انقبضت نفسه ، وأدرك عبد الله ذلك مما آنسه فيه من السكون . فأراد أن يروح عنه فقال له : « أبعيدان نحن عن منزلك »

قال : « اذا ما دخلنا المدينة دنونا منه لأنه فى أطرافها »

قال : « انى أستعجل الوصول لأستريح من وعثاء السفر وانجو من ركوب الجمال فقد أتعبنى اليوم جريها »

قال سعيد : « انى أرانى على ضد ذلك وتحدثنى نفسى ان أصلى العشاء فى المسجد قبل المبيت »

فأدرك عبد الله انه انما يريد زيارة قطام ليطلعهـــا على حديث جده ويرى مايبدومنها عندما تعلم بما عول عليه ، فرأى ان يثنيها عن زيارتها حتى يتمكن من تهيئة السبيل والحيلة فى مخاطبتها لئلا يفشلا ، لعلمه بما هو عليه سعيد من سلامة الطوية التى يخشى عليه منها . فقال له : « دعنا نصل العشاء معا فى المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلى فى المسجد »

فلم يراجعه سعيد حياء وقبل . ولكنه أسر فى قلبه أن يذهب خلسة الى منزل العجوز لبابة ليتحسس الحال

ودخلا الكوفة وقد أمسى المساء فقصدا الى منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل الى فراشه ، وانتظر سعيد حتى ظن رفيقه قد نام فالتف بعباءته وانسل الى بيت لبابة وقطع طريقه يفكر كيف يبدأ بالكلام . فلما وصل رأى لبـــابة خارجة منـــه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها ، فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحيـــة وهى لا تكاد تصدق أنها تراه . فلما تحققت أنه سعيد رجعت وهى تبالغ فى الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بترحابها ، ثم تذكر ماجاء فيه من الامر الجديد فانكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الحجرة فأمرت عبدها أن يضىء المصباح وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله . فقال : « انى وصلت الساعة ومن شدة تعبى من السفر الطويل لم أصبر على رؤيتك قبل المنام »

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل اليه لفرط قلقه أن عبـــد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت : « وما الذى يضحكك يا خالة ؟ »

قالت : « لقد أضحكنى شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح ! واشارت الى وجهها) وانت انما تشتاق الى رؤية وجه أجمل منه . . . أليس كذلك ؟ »

فقاطعها وهو يخفض صوته وقال : « لا والله انى الآن فى شـوق اليك أكثر من شوقى الى قطام لأنى وقعت فى ورطة لا ارى أحدا ينجينى منها سواك فاسعفينى برأيك ودهائك . وارجو قبل كل شيء أن تحفظى قدومى اليك الآن سرا تكتمينه عن كل انسان ، لأن معى رفيقا صحبنى من مكة فلما وصلنا الى الكوفة ورأى ميلى الى الخروج اقعدنى حتى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق فى نومه جئت خفية . . »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول : « لقد عودتنى يا خالة أن تكونى عونا لى فى مصائبى فأنت التى اقنعت قطام بمهارتك ودهائك بزواجى بها فالتمس منك الآن أن تقنعيها بما جئت به اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حيا لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها امر . فقالت : « قل ما بدا لك انى مستودع أسرارك ولا آلو جهدا فى خدمتك »

فتنهد سعيد وسكت وهى تحدق فيه بعينيها الغائرتين . وبعد هنيهة قال لها : « لقد جئتك بأمر لا ادرى كيف ابدأ الحديث فيه »

قالت : « قل ولا تبالى ولا تجزع فانى عركت الدهر ولقيت الأهوال حتى لم اعد أستغرب أمرا . . . قل ما بدا لك »

قال سعيد : « أنت تعلمين أنى عاهدت قطام على قتل الامام على »
قالت : « نعم أعلم ذلك »
قال : « وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة »
قالت : « علمت انك شخصت اليها ولكننى لم أعلم السبب »
قال : شخصت اليها اجابة لطلب جدى رحمه الله »
قالت : « جدك ابو رحاب ؟ ما الذى اصابه ؟ »
قال : « انه مات بعد وصولى الى مكة بيوم واحد وكان قد بعث الى ليرانى قبل موته »

قالت : مات أبو رحاب ! . رحمة الله عليه . انه كان رفيقا بك شفوقا عليك وانا أعلم انك ربيت فى حجره وقد كان أحن من الوالد عليك . ولا شك ان موته شق عليك كثيرا . وكم كنت تود ان يبقى حيا ليفرح بك ويشهد زواجك بعد ان يعلم بما عاهدت عليه لتنقذ بنى أمية من العار و . . . »

فقطع كلامها قائلا : « آه يا خالة لقد كنت اظن هذا الظن قبـل ان أراه .

ولكننى ما لبثت ان ندمت على ذهابى اليه لأنه حملنى قبل موته حملا ترينى انوء به »

قالت : « وماذا عسى ان يكون ؟ »

قال : « ان ما ظننته سببا لارتياحه قد رايته داعيا لغضبه »

قالت : « هل اخبرته بعزمك على قتل على ؟ »

قال : « نعم اخبرته ولكنه انكر على قتله وأوصانى وهو على فراش الموت ان لا امد يدى الى هذه الجريمة لأن هاتفا جاءه وانباه ببراءة الامام على مما يتهمونه به »

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليه وقد اسفت لخيبة مسعاها ، ولكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكا ولا اظهرت استغرابا بل تشاغلت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

واما سعيد فكان يكلمها وهو يتوقع بغتتها أو غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال : « ولما سمعت كلام جدى جادلته فرايت منه اصرارا على رايه وقص على شيئا كثيرا من الأدلة والشواهد المؤيدة لقوله »

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ماتقوله العجوز، فرآها لاتزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب ، فعطف بحديثه على المؤامرة التى شاهدها فى الكعبة ظنا منها انها توازن ماتقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام على وعمرو ومعاوية ، رأت فيها تعزية ولكنها اظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليه وارادت أن تتحقق ما عول هو عليه فقالت : « وهل علم ابو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة ؟ »

قال : « نعم انى اطلعته عليها قبل ارسال نفسه الاخير ببعض الساعة فلم يزدنى الا ثقلا بوصية قالها وهو فى آخر ساعات الدنيا .. آه من تلك الوصية »

قالت : « وما هى ؟ »

قال : « انه اوصانى بالا اكتفى بالكف عن قتل الامام على ، بل يجب ان ادفع عنه . فلم ار بدا من اجابة طلبه وانت تعلمين موقفى فى مثل هذه الحال ... ولكنى لم اعاهده الا بعد أن تفطر قلبى لدموعه التى كانت تنحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيل الى ان عظامه تتكلم »

▭

فلما تحققت نكوله عن عهده خافت اذا اظهرت له الاستياء ان يبوح بامرها

وامر قطام الى على وهما فى الـكوفة فينتقم على منهما ؛ فارادت ان تخادعه فتاخذ منه ولا تعطيه فقالت : « ولماذا لم تلعن لجدك فان كلام مثل هـذا الشيخ الجليل يعتبر خارجا من افواه الملائكة »

فلما سمع كلامها انشرح صدره فابتسم وقال بكل سذاجة : « كيف لم اذعن ؟ لقد اذعنت وعاهدته وهل استطيع غير ذلك ؟ . ولـكننى عاهدته وقلبى فى شاغل بقطام وعهدها لعلمى ان ذلك العهـد يحرمنى منها » . ثم عطف فقال : « ولكنى لما تذكرت حبـك لى وغيرتك على هان الامر وقلت ان مايعسر على مثلى يهون على خالتى لبـابة ... بالله ... الا ساعدتنى على اقناع قطـام بالرجوع عن عزمها على قتـل الامام على ، انه والله برىء مما اتهموه به .. بالله ساعدينى واشفقى على فقد وقعت فى حيرة بل هى مصيبة لاينجينى منها سواك » . قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقه

فتظاهرت تلك العجوز المحتاله بالحنو وتبسمت وهى تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما واجلسته وقالت : « طب نفسـا يابنى ، انى فاعلة ما تريد وارجو أن يساعدنى الله على اقناعها ... »

فلما سمع سعيد قولها ابتسم والدمع ملء عينيه اعجابا بحنوها وفرحا بنيل بغيته التى لم يكن يتوقعها وفرح بمجيئه تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام

اما لبابة فنظرت اليه وهى تحك ما وراء اذنها براس سبابتها كانها تفكر فيما تختلقه من الاسباب لاقناع قطام ، وهى فى الحقيقة تدبر حيـلة لخداع سعيد ثم قالت : « طب نفسا ولا تبالى فانى اضمن لك الفوز اذا اطعتنى .. » فابتدرها قائلا : « انى طوع مشيئتك فى كل ماتامرين، هذا مالى وكل ما املكه بين يديك »

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة . ثم سكت هو وظلت هى مطرقة ، ثم استانفت الحديث بغتة فقالت : « سبحان الله لقد مرت بى ايام وانا مستغربة مايبدو لى من قطام على غير المعتاد فقد يكون الذى فاه به جدك فى مكة اثر فى قطام هنا ولا ادرى ما هو هذا التاثير »

فدهش سعيد مما سمعه وقال : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « اعنى انى آنست من قطام تغيرا غريبا بعد ذهابك ، فانها لم تعد تذكر الانتقام وقضت اياما عديدة كانها فى حيرة او كان امرا طرا عليها لا تتكلم الا قليلا فعسى ان يكون ماغيرك قدغيرها . وعلى كل حال كن فى راحة وسكينة وانا ادبر الامر ، فلا تذكر انك جئت الى ولا انك رايتنى قبل رؤيتها »

قال : « بارك الله فيك . والله ان قضيت لى هذه المهمة لا ادرى كيف

اكافئك . ولكنى اتقدم اليك الا تذكرى زيارتى هذه لأحد ولا سيما رفيقى عبد الله »

قالت : « سمعا وطاعة فعليك اذن ان تأتى غدا لزيارتها فى منزلها وأنا هناك ، ولاتزد على السلام والكلام العادى . واحذر أن تذكر شيئا عما خضنا فيه الا اذا هى خاطبتك به .. وهل تنوى اصطحاب رفيقك غدا »

قال : « سيأتى معى ولا بأس من الخوض فى الامر بين يديه لأنه بمنزلة أخى »

قالت : « فليكن ما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك »

فازداد سعيد اعجابا بغيرتها وحنوها فقال لها : « اسمحى لى أن اقبل يدك فانى لما فقدت جدى الذى كان بمنزلة أبى حسبت نفسى يتيما ولكننى تحققت الآن من حنوك انى ما زلت مرموقا بعين العناية . ها انى قد القيت الحمل على عاتقك فدبرى الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مرارا ونهض ونهضت لوداعه وهى تقول له : « نم هنيئا وموعدنا فى اللقاء غدا فى بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سرورا لنجاته من شر عظيم . ولم يدر ما بيتته له تلك العجوز من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها واعملت فكرتها الخبيثة فى حيلة تنطلى عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من ان يشى هو بها وبقطام الى على اذا أنكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته ، ولكنها رأت من الفطنة والدهاء ان تجاريه فى رأيه ، وتحمل قطام على مشاركتها فى ذلك ، ثم تحتالا فى بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المتآمرون عهدهم فيقتل على . وما درت لبابة ان قطام اشد دهاء منها واعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة أخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقادا قبل اطلاع قطام على الامر ليهيئا الحيلة قبل مجىء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى بيت قطام

لقاء قطام

أما سعيد فخرج والفرح ملء فؤاده حتى أتى منزله فرأى رفيقه نائما لفرط تعبه فسر لذلك سرورا عظيما ، ومضى الى فراشه ولـكنه لم يستطع رقادا لشدة تأثره ، فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر فى ساعة اللقاء غدا ولا يصدق أن يلقى قطام على مثل رأيه . فلمـا تصور عدولها عن قتل على كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعي فى الدفاع عن على وردع الساعي فى قتله فيختلج قلبه فى صدره لهول ذلك الامر . على أن هـذا الامر لم يكن شيئا بالنظر الى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض عيناه حتى الصباح ، ولم يكد ينام حتى أفاق مذعورا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لابطائه فى الفراش والوقت ثمين ، فنهض لساعته وخرج يبحث عن عبد الله فاذا هو قد لبس ثيابه ووقف يصلى فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول

فلما فرغ من الصلاة قال له عبد الله : « لقد أبطأت فى زقادك يا أخا أمية »

قال : « انما أبطأت لهول ما لقيناه من التعب فى الطريق »

فصدقه عبد الله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق فى تصوراته وقد أدرك عبد الله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له : « ألا تنوى الذهاب الى قطام ؟ »

قال : « بلى أرى أن نسير اليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منها انصياعا للحق فتعدل عن عهدها »

فأراد عبد الله أن يختبر ثباته فقال : « هب أنها لم تقبل فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك أم ترجع عما أوصاك به جدك ؟ »

قال سعيد : « اننا نبذل جهدنا فى اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدى مقدسة » .

فسر عبد الله لثباته على عزمه وهو لا يعلم أنه لم يفعل ذلك الا بعد ما أملته به لبابة من اقناع قطام ، ولولا ذلك لتردد فى الجواب كثيرا وربما آثر البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده ، لأن غرامه بتلك الغانية الفتانة غلب على كل عواطفه .

فلما راى عبد الله عزمه استعجله فى الذهاب الى قطام مخافة ان يطرا عليه ما يضعف عزيمته . وكان عبد الله أسر فى نفسه اذا آنس فيه ترددا أن يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يقصدان بيت قطام

ولم يكن بال سعيد خاليا من القلق ولكنه اطمأن الى ما منته به لبابة من الوعود

ووصلا الى المنزل ودخلا الحديقة فاختلج قلب سعيد اذ عادت اليه ذكرى لقياه قطام هناك وما تبادلاه من آيات الغرام . وفيما هما سائران بين النخيل رأيا لبابة بالباب تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه وراءه حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يكن قد رآها بعد رجوعه. فردت تحيته وسلمت على رفيقه ، فدخلا حتى اقبلا على قطام فاذا هى واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلبابا اسود فوقه خمار اسود فلما راتهما ارخت خمارها واقبلت نحوهما ، فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وقال : « لقد اتيت ومعى صديقى واخى عبد الله فانه انيسى ومساعدى »

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وكلهم سكوت ، وبدأت العجوز بالكلام فقالت : « لقد اوحشتنا ياسعيد بطول غيابك وقد اخبرنا ريحان انك أتيتنا يوم سفرك فلم تر قطام فشغلنا عليك لسرعة ذهابك فعسى ان يكون الباعث خيرا »

فتنهد سعيد وقال : « كلا انه لم يكن خيرا ياخالة لأنى ذهبت الى جدى ابى رحاب فى مكة فقد ارسل اخى هذا عبد الله يدعونى اليه »

قالت : « وماذا عسى أن يكون سبب استدعائك ؟ »

قال : « دعانى لأراه بعد أن هرم وغلبه الضعف والمرض على امره ، فلما تحقق دنو اجله اراد ان يرانى قبل موته فسرت ولم امكث الا ليلة حتى قضى نحبه »

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت : « هل مات جدك ؟ .. رحمة الله عليه وعزاك الله وابقاك » . وتنهدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت : « ان موت الاهل شديد الوطأة »

وكان عبد الله يراقب حركات قطام ، وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيدا على افتتانه بها وخاف أن تمر على عهدها فتخرج من نصيب سعيد ، فأحب ان يطرق الموضوع ليرى مايبدو منها ولكنه راى انه لم يسبق له أن عرفها فقد تتجنب الخوض فى الامر ، فنهض وخرج وخرجت لبابة فى اثره اتماما لحيلتها

□

فلما خلت قطام بسعيد سألته : « من هذا الشاب . وهل هو ممن يوثق

»

قال بنغمة المحب المفتون : « انه رفيق صباى وموضع اسرارى ولا اخشى باسا من اطلاعه على كل شيء »

قالت : « وهل اطلعته على عهدنا ؟ »

قال : « نعم ياحبيبتى وهل ترين ما يمنع ذلك ؟ »

قالت : « كلا ، لا ارى مانعا ولكننى كنت اوثر ان لاتطلعه لخاطرخطر لى بعد ذهابك الى مكة »

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال : « وما الذى خطر لك ؟ »

قالت : « ساقصه عليك وآمل أن تطاوعنى عليه ولا تطالبنى بما سبق بيننا من العهود »

قال : « قولى ما تشائين . فمشيئتك هى العهد الذى يقيدنى . فانى رهين اشارتك »

قالت : « أتذكر لما جئت الينا يوم سفرك ولم تجدنى فى البيت ؟ »

قال : « كيف لا اذكر ذلك وقد كان له عندى اثر شديد »

قالت : « أتدرى اين ذهبت يومئذ ؟ »

قال : « كلا »

قالت : « خرجت فى ذلك اليوم الى اهلى ولم يكن غرضى الزيارة وحسب ولكننى شعرت بقلق واضطراب ولم اذق رقادا تلك الليلة التى عاهدتك فيها على قتل امير المؤمنين . فلما اصبحت قلت فى نفسى لعل سبب هـذا القلق انى ارتكبت ذنبا بما سعيت فيه ظلما لقتل الامام . فلاح لى ان امضى الى اهلى وابحث وادقق عن حقيقة ماوقع ، فعلمت بعد البحث ان الذنب فى قتل ابى واخى لم يكن ذنبه هو ، وتحققت انه برىء ، وانه نصح لهما مرارا قبل الوقعة بان يرجعا فابيا ، ولما احتدم النزال وعلم انهما فى خطر اوصى بالا يصيبهما احد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما وهو لايدرى ، فلما علم غضب على القاتل وانتقم منه . فشعرت عندئذ انى قد اخطأت بما نويته واعتزمت ان احولك عما تعاهدنا عليه . فقضيت مدة غيابك وانا فى حيرة لا ادرى كيف ابدأ باقناعك . وحفظت ذلك سرا كتمته حتى عن خالتى لبابة »

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن النهوض فجأة ونادى عبد الله ولبابة فجاءا ، فالتفت سعيد الى عبد الله وقال له : « تعال اسمع يا اخى ما اعده الله لنا من اسباب السعادة . فاننا لم نكلف انفسنا عناء اقناع قطام . بل هذه هى تريدنا على أن ننسى العهد الذى رويت لك خبره وتقلع عما عزمنا عليه »

فتجاهلت قطام قوله وقالت : « ماذا تقول يا سعيد وما الذى جئتنا به عساه أن يكون خيرا »

فعرضت لبابة للكلام وقالت : « يلوح لى انك جئتها بمثل ماجاءتك هى به »

قال : « نعم يا خالة واحمد الله على ذلك فانى جئت من مكة مقتنعا ببراءة الامام على وأخذت على نفسى عهدا أمام جدى ألا أمس عليا بسوء ، وكنت أختى ألا توافقنى قطام عليه فأصبح أشقى الناس . فالحمد لله اذ قضى بما فيه خيرنا جميعا » . وجلس يقص عليهم حديث جده وما أوصاه به فظهرت امارات البشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان أحد المتآمرين آلى على نفسه ليقتلن الامام عليا تظاهرت قطام بالغضب وقالت : « ألم تعرف من هو الرجل ؟ »

قال : « لم أعرفه ولكننى علمت من سياق الحديث انه من فسطاط مصر »

قالت : « أما وقد علمت بعزم هذا الرجل فقد أصبح السكوت عنه مشاركة له فى القتل ، فلا بد من ردعه أو قتله »

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال : « وقد فاتنى أن أذكر أن جدى أوصانى بأن اسعى فى دفع السوء عن على »

فقالت : « وهذا ما أراه أنا أيضا لأن السكوت عنه جريمة ، ولكنى أرى أن يبقى امر هذه المؤامرة سرا لانطلع عليه احدا لئلا يسبقنا الى نيل الفخر برده ، وحتى لايسرب الخبر الى المتآمر فيستعجل أمره ويقتل عليا ونحن لم نعرفه بعد ولم نبدأ سعينا لاحباط عمله . ألا ترى هذا الرأى ياعبد الله ؟ »

فدهش عبد الله من تواردالخواط ولم يعلم بزيارة سعيد للبابة لانكشف له سر الحيله ولكنه أخذ الامر على ظاهره فقال : « هذا هو الرأى الصواب ، وها انذا اتارع مع أخى سعيد فى السعى لردع ذلك الرجل »

فالت : « وماذا تنويان عمله ؟ »

قال سعيد : « ارى أن نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل فاذا عرفناه هان علينا ردعه »

فقالت قطام : « وما الفائدة من ذهابكما وانتما لاتعرفان الرجل ولا تعلمان شيئا من أمره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان أحدا هناك ؟ »

قال عبد الله : « انى أعرف الفسطاط ولكننى لم أقم بها طويلا ولا أعرف أحدا من أهلها ولكننا نبذل جهدنا »

فتقدمت لبابة والاهتمام باد عليها وكانه قد فتح عليها برای سديد فقالت :
« اجلسوا وساهديكم الى طريق يهون عليكم كل صعب »

فجلسوا جميعا فقالت : « لا تسخروا برای عجوز مثلی فانی أعرف من الأسرار ما لا تعرفون . اعلموا أن فی مصر من مريدی الامام علی أحزابا جمة اذعنوا لعمرو بن العاص مكرهين ، وهم صابرون علی ما أصابهم فی مقتل ابن ابی بكر ، وهم ينوون الانتقاض اذا أتيحت الفرصة لذلك »

قال عبد الله : « أهذا ما تفاخريننا بمعرفته ؟ انه لايجهله أحدمن المسلمين ، وانی لأعلم ما هو أكثر منه »

قالت : « وما الذی تعلمه ؟ »

فابتسم عبد الله مستخفا وقال : « هناك أمور كثيرة علمتهـا من جدنا ابی رحاب رحمه الله ، وقد أوصانی بألا أطلع عليها أحدا »

فتوقعت لبـابة أن تطلع علی ماور ك علی سر ، وهی لم تقل ما قالته الا استدراجا له ، فهزت كتفها والتفتت الی قطام التفاتة ذات معنی ، ففهمت قطام مرادها

فابتدرت عبد الله قائلة فی دلال : « اذا كنت قد وقعت علی سر فاحفظه ولا تبح به لأحد من الخوارج مثلنا »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ، ونظر الی سعيد فرآه ينظر اليه كأنه يتوقع منه ان يفشی السر لئلا تسیء قطام الظن بهما ، فقال معتذرا : « حاش لی يامولاتی . انی لا اعنی كتمان السر عنك بعد أن رايتـاك مثلنـا حماسة للدفاع عن أمير المؤمنين بل لقد كنت أنت الداعية الی الدفاع عنه . ولكننی قلت ما قلته عفوا ، ولكی تثقی من حسن نيتی سأبسط السر لك ولخالتی لبابة » . قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحـاذر أن يسـمعه رقيب ، أو عدو ، فلما اصغی الجميع قال : « علمت من جدی رحمه الله أن فی الفسطاط جمهورا كبيرا لا يزالون علی دعوة الامام علی ، وهم متحدون قلبا وقالبا فی القيام بنصرته ، ولهم اجتماعات سرية يعقدونها للمفاوضة فی الوسائل المؤدية الی ذلك » . ولما بلغ الی هذا الحد تلعثم لسانه كان شيئا اوقفه عن

اتمام الحديث ، وارتبك وظهرت عليه البغتة ، كانما ندم على ما فرط منه وعول على الامساك عن تتمة الحديث . فأدركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهى تضحك : « أبعم به من سر عميق لم يطلع عليه أحد ، انى لا أراك زدت على قولى حرفا واحدا . الم اقل ان دعاة على باقون على دعوته ، فماذا زدت انت على ذلك الا انهم يجتمعون سرا ؟ أم تراك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته ؟. وعلى كل حال لست ألومك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة »

فقطعت قطام حديثها قائلة : « أتقولين انك لا تلومينه بينما أراك عاتبة عليه ؟. دعيه لئلا يظننا راغبين فى استطلاع سره لغرض لنا ونحن انما نريد بعض ما يريده عبد الله فلا حاجة لنا فى سره ، ولكننا نوصيه بأن يقوم بمؤازرة سعيد فيما أوصاه به جده ، وهذا يكفينا » . ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « لقد سرنى من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التى بعد ان كانت اول الناقمين على على اصبحت من اكبر المدافعين عنه ، وهب أنه اراد افشاء ذلك السر فما نحن سامعون ما يقول ، اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به للأعداء »

فوقع كلام قطام فى قلب سعيد موقع السهام ، وغلب عليه الحياء والتفت الى عبد الله وقال : « لا طاقة لى باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله ، قل ما تعلمه سواء أسمعته قطام ام لم تسمعه . ولن ابرح هذا المكان قبل ان أسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منه واصبح لا يدرى كيف يتخلص من حيائه وارتباكه . ولما رأى الحاح سعيد هان عليه التصريح بما يعرفه ولم ير فى ذلك لوما عليه فقال : « اراكم تتهمونني بذنب انا برأء منه ، فانى لم أتوقف عن اتمام الحديث ضنا به على قطام بعد أن تحققت اخلاصها فى الدفاع عن على ، ولكننى صبرت ريثما استجمع كلام جدى بحرفه ، فاذا اذنت قطام تلوته عليكم حالا »

قال سعيد : « قل ما علمته ، واذا سدت قطام اذنيها عن سماعه فانا اسمعه »

قال عبد الله : « اخبرنى ابو رحاب رحمه الله أن دعاة الامام على يجتمعون سرا فى معبد قديم خارج الفسطاط فى مكان يعرف بعين شمس ، وهم يتفاوضون فيه سرا فى يوم الجمعة من كل اسبوع »

فسرت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر ، ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت : « أهذا هو السر العظيم ؟ انه باطل لا يقبله العقل ! »

فاغتاظ عبد الله من استخفافها وقال : «وما الدليل على بطلانه يا خالة ؟ »

قالت : « تقول ان دعاة على يجتمعون هناك كل يوم جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد ؟. وهب انه وسعهم فكيف يجتمع الالوف منهم كل اسبوع ولا يدرى بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة فى اطراف الفسطاط . فهل ذلك معقول ؟ »

فسر عبد الله لاستخفافها بكلامه وحسب افشاءه السر غير ذى اثر ، وود الوقوف عند هذا الحد ، فلم يرض سعيد بذلك بل اخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب انه اتى جديدا فقال : « ان عبد الله لا يعنى باجتماع دعاة على انهم يجتمعون جميعا كبارا وصغارا ولكنه يريد أن رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » . فضحكت لبابة وهمت بالرد عليه . فقطعت قطام كلامها قائلة : « يظهر يا خالة انك انما تريدين المزاح ، فقد طلبت من عبد الله افشاء سره ثم جعلت تجادلينه ، ونحن لايهمنا من الامر إلا الوصول الى الغاية المرجوة ، وهذا يكفى »

تم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « دع لبابة وتخريفها واسع فيما انت ساع فيه . سر الى دعاة على حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا اوصيك الاوصية واحدة ذكرتها فى بدء الحديث وهى ان تبقى هذا الأمر مكتوما فيما بيننا عن كل انسان ، حتى نعرف الخائن الذى يريد قتل الامام على ، فاذا عرفناه فاما أن نرجعه عن غيه أو نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . اما اذا اشعنا خبره الآن فانه يبالغ فى التستر ، وربما اسرع فى انفاذ سهمه فيقتل امير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثا . اما الآن فنحن على يقين من انه لا يقدم على ذلك الا فى ١٧ رمضان ، ونحن لانزال بعيدين عنه .. وزد على ذلك أنك اذا حفظت هذا الأمر مكتوما وتفردت فى البحث عنه كان الجزاء عظيما . ولا ارى فائدة من اطالة البحث. ولكى تتحقق من شدة رغبتى فى الاسراع ، ابدل عهدى ابدالا يسرك فبدلا من ان يكون اقترانا موقوفا على قتل الامام على فقد جعلته وقفا على انقاذه من القتل ، فاذا كنت تحبنى ، وهذا ما لا اشك فيه ، فبادر الى العمل ، وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما اقول »

وكان سعيد بعد أن تغير وجه المسألة يرجو أن يقترن بقطام قبل ذهابه فى هذه المهمة . فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلا يقال انه اشد رغبة منه فى الدفاع عن على ، فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه الا اجابتها فقال : « وهذا ما اطلبه انا ايضا لكى يتم عقد الزواج على يد الامام نفسه بحول الله »

وكان عبد الله يسمع هذا الحديث وقد خامره شك فى كلام قطام ، وندم

لتسرعه فى افشاء السر فظل صامتا لئلا يقع فيما يزيد ندمه ، وشعرلساعته بما أوتيته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيرا من اظهار ثقته بهـا فأخـذ يطرى غيرتها ويثنى على صدق مودتها فقال لها : « انى اعد اخى سعيدا من أسعد خلق الله لتوفيقه الى منلك ، وانى أدعو الله تعالى أن ينجح مقاصدنا ؛ وسكت هنيهة تم قال : « وقد أصبت فى حرصك على كتمان الأمر عن كل انسان ، بارك الله فيك » . والتفت الى لبابة فقال : « وأنت يا خالة نرجو أن تزودينا دائما بدعواتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة : « أما الرأى ففى الاسراع فى الامر ، فعليكما بالسفر حالا الى مصر ، وأطلب الى الله تعـالى أن يوفقكما ويسـهل طريقكما ، واذا أتيتما الفسطاط فاطلبا عين شمس فى يوم الجمعة ، ولن تعدما من أنصار أمير المؤمنين من يرشدكما الى الباغى »

وقضوا برهة فى أحاديث أخرى ، ثم انصرف عبد الله وسعيد ، وفى نفس أولهما شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها ، لما آنسه من اخلاصه لقطام وارتياحه الى وعودها ، ولكنه عول على انتهاز فرصة يستطيع بها التسلط على أفكاره

▭

ولما خلت لبابة الى قطام بعد خروج سعيد وعبد الله قالت لها : « لقـد تمت لنا كل المعدات وآن يوم الانتقام على يد غير هذا الجبان. ان عليا سيقتل لا محالة ولقد احسنت بتطمينه ومسايرته . واحسن ما رأيته من دهائك توصيته بالكتمان لانه لو أطلع عليا على خبر المؤامرة لفشل أصحابها ونجا على من الموت »

فأجابت قطام قائلة : «ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز ، وأنا لم التمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط ، ولكنى اردت أن يبقى خبر المؤامرة مكتوما عن كل انسان لغرض آخر »

قالت : « وما ذلك فانى لم أفهم مرادك ؟ »

قالت : « أتكونين لبابة العجوز الماكرة ويخفى عليك مغزى كلامى ؟ ما الفائدة اذن من البحث عن مجتمع أنصار على ؟ »

قالت : انى ما زلت أجهل ما تريدينه ، فما مرادك ؟ »

قالت : « مرادى أن أبعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها ، ليقبض على رجالها ، وسيكون سعيد وعبد الله بينهم ، فاما ان

يقتلهما أو يسجنهما ، فاذا قتلهما ظل أمر المؤامرة مكتوما عن كل انسان ، واذا سجنهما ظلا فى السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الأقل فيكون قد نفد السهم وانتقمت لأبى واخى ، ولا يهمنى بعد ذلك أمر »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همت بها وقبلتها وهى تقول : « بورك فيك يا بنية والله انك أبعد منى نظرا وأشد دهاء ، واذا أحياك الله الى سنى فان ابليس نفسه لن يقوى على مكرك ! » . قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالسا فى مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه أحد ، فلما وقف بين يديها قالت له : « الم يقتل سيدك ظلما ؟ »

قال : « كيف لا ، وانى مطالب بدمهما ؟ »

قالت : « أتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « أحسبك دعوتنى لتبعثنى بى الى عمرو بن العاص فى الفسطاط لاخبره بأمر مجامع العلويين »

قالت : « نعم انى دعوتك لمثل هذا ، بورك فى سوادك . هذا وقت الحاجه اليك . ولكن لا تذكر اسمى لعمرو ، أنا واثقة بفطنتك فلا تخيب املى اذهب الى مصر ابلغ الرسالة ، وجئنى بمقتل هذين او سجنهما وانت حر لوجه الله »

فقطب ريحان حاجبيه وأجاب كأنه يعاتبها : « ألا تعلمين يا مولاتى انك تهينيننى بهذا الكلام من حيث تريدين سرورى . اتظيننى أوثر الحرية على الاستعباد لك . لقد قلت قولا فاسمحى لى أن أن اقول مثله . اننى ذاهب لانفاذ مرامك فاذا انا فزت فيه رجوت أن تعدينى بألا تذكرى حرينى ابدا »

فضحكت قطام واظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت : «سر يا اسود . انك والله خير من الف ابيض »

أمام الفسطاط

الفسطاط مدينة عمرو بن العاص فى مصر بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) انه لما فتح حصن بابل حيث دير مار جرجس الآن او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس ، نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج الدير بين النيل وجبل المقطم ، فأمر بتقويضها للرحيل فجاءه مبعث بأن فى فسطاطه يماما معششا وتحته صغاره لاتستطيع الطيران ، فقال عمرو « لقد احتمت بجوارنا فأقروا الفسطاط حتى تطير فراخها » . فتركوا الفسطاط منصوبا حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله . ولما أكملوا عمارة المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط ، وهى أول مدينة بناها المسلمون فى مصر واتخذوها عاصمة ملكهم ، حتى بنيت القاهرة فى القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها

وكانت الفسطاط فى العام الاربعين للهجرة ، وهو العام الذى جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله ، قد عمرت واقامت بها القبائل والافخاذ فى خطط وحارات بنيت لهم . وكانت مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان فيما يقرب من مصر العتيقة الآن . واما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل ، وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم ، فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما اقيم عليه من البناء انما حدث بعد ذلك

وكان جامع عمرو الباقية آثاره الى اليوم مركز تلك المدينة ، وحوله أنشئت الخطط والازقة . وكان أقربها الى الجامع المذكور دار عمرو ، أو هما داران : الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون اولا ينزلون فى الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس ببناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الاديار للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . وبنوا الخطط او الطرق على أسماء القبائل التى تألفت منها حملة ابن العاص فى ذلك الحين ومن نزح بعدهم ، واوجههم جميعا أهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم ، فبنوا لهم خطة سموها خطة أهل الراية ، ثم خطة مهرة ، وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان ، فضلا عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين الذين حضروا الفتح واصلهم من بقايا جند (باذان) عامل كسرى على اليمن قبل

الاسلام ، اسلموا فى الشام . وكانت هناك خطط اخرى لاتحصى فضلا عن الطرق والازقة والحارات

فنرى مما تقدم انه لم يكن يقيم بالفسطاط فى أول أمرها غير المسلمين واما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء برعاية المسلمين اقام فى الاديار خارج الفسطاط ، وأكبرها دير النصارى (دير مار جرجس) وهو الحصن الذى حوصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون ، وكان يسمى حصن بابل او قصر الشمع . وربما اقام بعض القبط او اليهود فى الفسطاط لتجارة او صناعة او كتابة ، لأن عمرا عهد الى القبط اول الامر فى اعمال حكومته وابقى الدواوين تكتب بالقبطية ، وبقيت كذلك الى امارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأبدلت بها العربيه

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالى الفسطاط خربة لم يبق من ابنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة الا بعض الجدران الغليظة او الاعمدة الضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهى مهجورة لايقيم بها احد فاذا احتاج الناس الى حجارة او اعمدة يبنون بها دارا كبيرة او جامعا حملوها من انقاضها

□

وقد تركنا سعيدا وعبد الله وهما يتأهبان للرحيل فى ذلك اليوم ، فأصبحت على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط ، وهما لا يعلمان ما أعدته لهما قطام من المكائد . وسارا يواصلان الليل بالنهار حتى اقبلا فى فجر يوم جمعة على الفسطاط ، فأطلا عليها من سفح المقطم فاذا هى ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة وراءها يجرى النيل وفيه السفن راسية تحمل الغلال والاحمال ، بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال . وفى وسط المدينة جامع عمرو وحوله الابنية والدور . فوقفا هنيهة يدبران الخطة التى يجب أن يسيرا عليها للقيام بمهمتهما

فقال عبد الله : « ها نحن أولاء امام الفسطاط وقد طلع فجر الجمعة الذى يجتمع فيه دعاة أمير المؤمنين فى عين شمس على ما نعلم . فهل نظل هنا برهة ثم نسير توا الى عين شمس ؟ »

فقال سعيد : « لا داعى الى بقائنا هنا ، وقد يكون فى بقائنا مظنة سوء ونحن على ما يعلم الناس من دعاة معاوية . وزد على ذلك اننا لا ندرى متى يعقد ذلك الاجتماع : أفى الصباح ام فى المساء ؟ أم فى وقت بينهما » .

قال عبد الله : « لست على يقين من ساعة الاجتماع ، ولكننى اظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء على أنى لا أرى بأسا من النزول الى

الفسطاط حيث نصلى الصبح ونضع دوابنا فى مأوى تستريح فيه ، ثم أخرج أنا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانه وأعود اليك فنذهب معا »

قال سعيد : « هذا هو الصواب »

ونزلا يناقشيهما حتى دخلا المدينة وهى ساعتئذ آهلة بالنـاس وقد أذن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وأمامه ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى أوتاد أو نخيل . فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد أضحت وتقاطر المسلمون أفواجا فدخلا فى جملة الداخلين

□

لم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رايا الناس فى حركة وجلبة وقد فتح باب فى بعض جوانب المسجد دخل منه رجال فى أيديهم السياط يزجرون الناس. فقال سعيد : « من هؤلاء ؟ » . فقال عبد الله : « هم الشرطة يفسحون الطريق للأمير » . ولم يكد عبد الله يتم كلامه حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنها العقيان تتألق عليه حلة وعمامة وجبة ، فعرفا انه عمرو بن العاص . وصعد المنبر والناس ينظرون فحمد الله وصلى على النبى (صلعم) ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم ، وجعل يحضهم على الزكاة وصلة الأرحام ، ويأمر بالتوفير وينهى عن الفضـول ، وكثرة العيال وافاض المقال فى ذلك الى أن قال : « يامعشر النـاس ، اياكم وخلالا اربعا فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة . اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المـال ، والقيل بعد القال فى غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء فى توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا وعن حلال الله وحرامه غافلا . يا معشر الناس انه تدلت الجوزاء ، وذلت الشعرى ، وأقلعت السماء وارتفع الوباء ، وقل الندى وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى لرعيته حسن النظر ، فحى لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، واياكم والمومسات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر امير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها

خيرا فان لهم فيكم صهرا وذمة) . فكفوا ايديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا ابصاركم . ولا أعلمن أن رجلا أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثنى عمر امير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الارض) . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : (ولم يا رسول الله ؟) قال : (لأنهم وازواجهم فى رباط الى يوم القيامة) . فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم ، وتمتعوا فى ريفكم ماطاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحى الى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولى هذا واستحفظ الله عليكم »

وكان عمرو يخطب والناس يسمعون وقد خشعوا لما تكلمه من الأوامر والنواهى والوصايا . فقال سعيد لعبد الله همسا : « والله انه لنعم الأمير ، وشلت يد تقتله . انى والله منذره بذلك متى دنا الأجل المضروب » . فلم يجبه سعيد مخافة أن يلحظ أحد شيئا مما هما فيه

وخرج الناس بعد الصلاة ، وخرج عبد الله وسعيد ، واجتمعوا فى ساحة المسجد خارجا ، وتعارفوا فعرف عبد الله رجلا من غفار كان له معه صداقة فدعاه وسعيدا الى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فالح عليهما فسارا معه لئلا يوجب ابتعادهما شبهة ، فأنزلهما فى منزل له فى خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فأمر الغفارى عبدا له بتسلم الراحلتين والسير بهما الى المرابط ، ودخل بالضيفين الى غرفة لم ير فيها نافذة الا كوة فى أعلاها فعجبا ، وهم عبد الله بالاستفهام عن ذلك وأوقفه التأدب ، فلحظ الغفارى استغرابه فقال له : « لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر أبنية الفسطاط »

فقال عبد الله : « انى والله يا اخا غفار لفى عجب عجاب مما أرى فما الذى دعا الى هذه الأقفال ؟ » . فقال الغفارى : « اعلما أن خارجة بن حذافة صاحب شرطة الأمير عمرو بن العاص هو أول من ابتنى غرفة فى الفسطاط . فلما علم بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يومئذ كتب الى عمرو بن العاص يقول : (ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرا واقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها) . ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فاقرها فلم يجسر أحد أن يبنى غرفة بعد ذلك الا على هذا الوصف وهو أضمن للحجاب »

ثم جاءهما الغفارى بالزاد فأكلا ، وما لبثا حتى خرجا يطلبان الخلوة للنظر فيما جاءا من أجله ، ومشيا فى المدينة يتظاهران بالتفرج على مشاهدها فقال سعيد : « اننا فى وقت الظهر وما العمل ؟ »

فقال عبد الله : « دعنى أسر وحدى الى عين شمس فانها على بضعة اميال من هنا حيث ترى الخرائب وامامها هاتان المسلتان ، وسأبحث لأهتدى الى مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه جئتك على عجل . فأين الملتقى ؟ »

قال : « ابقى أنا فى المسجد حتى تعود الى واحذر أن تطيل غيابك »

فسكت عبد الله ولبث برهة يفكر ثم قال : « اذا ابطأت فى الرجوع اليك فاذهب الى عين شمس وانتظرنى بقرب هاتين المسلتين القائمتين فأوافيك اليهما او ابعث من يدعوك الينا »

فافترقا وقصد عبد الله الى عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد الى الجامع

وأقبل عبد الله على عين شمس فاذا هى مؤلفة من اطلال ليس فيها من الابنية الا الجدران والاعمدة ، فطاف بين خرائبها فلم يرأحدا ولاسمع صوتا ، وقضى فى ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم ير اثرا للآدميين ، فظن نفسه قد اخطأ المكان او اساء فهم ما بلغه من امر ذلك الاجتماع حتى كاد يهم بالرجوع وقد خاب ما أمله وخيل اليه أن دعاة على ابدلوا بمجتمعهم هناك مكانا آخر

فأسند ظهره الى جدار ووقف يفكر فيما يفعله وقد مالت الشمس الى المغيب فرأى رجلا قادما من الفسطاط فتشاغل عبد الله بمشاهدة ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفية كأنه يعجب لغريب صنعها . وكان الرجل يظهر تارة ويختفى تارة اخرى فى مروره بين الأعمدة والخرائب وعبد الله يختلس النظر اليه . ثم نظر فاذا به قد اختفى

▭

فعجب عبد الله لأمره وقال فى نفسه : « لابد ان يكون الرجل من اهل ذلك الاجتماع السرى وقد نزل فى نفق أو نحوه » . فالتمس المكان الذى ظن انه اختفى فيه فوجد منحدرا يظهر لأول وهلة انه مسدود فنزل فيه وهو يخطو الهوينى حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع لغطا فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنه لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف أن يراه القوم فيقتلوه

فوقف برهة يتردد بين أن يستبر متلمسا طريقه وبين أن يرجع ليأتى سعيد . ثم بدا له أن يتحقق المجتمع أولا ثم يعود ، فخطا بضع خطوات وهو

لايرى شيئا امامه فلطم راسه السقف ، فحمى ظهره وداهمه العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الا . قد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم ارديه سوداء تريدهم رهبة فقبضوا عليه وهو لا يبدى حراكا . ونزلوا به فى الممر الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيبا : ولولا شمعات مضيئة فى بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لا تطاق لكثافتها . ونظر عبد الله الى من حوله فرأى فى وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدر ما تحتها ولكنه لم يستطع التامل وقد احدق به بضعة عشر رجلا التحفوا العباءات تحتها السيوف وكلهم ملثمون . فخاطبه واحد منهم يسأله عما يريده .

فقال : « انى جئت اشاركم فيما أنتم فيه »

قال : « وما أدراك ما نحن فيه ؟ »

قال : « علمت أنكم تدعون الناس الى نصرة الامام على . أليس ذلك ما تدعون اليه ؟ »

قال : « وما شأنك فى هذا ؟ » .

قال : « شأنى هو شأنكم . لا تسيئوا الظن بى انى قادم من الكوفة لهذا الأمر »

فقال له رجل آخر : « كيف تكون أمويا وتدعى نصرة الامام على ؟ »

فخيل الى عبد الله انه يستمع صوت صديقه الغفارى الذى أضافه فى الصباح

فقال : « ألست أنت صديقى الغفارى . أصدقنى ولا تخف انى والله جئتكم بخبر مهم اذا أشركتمونى فى أمركم اطلعكم عليه وتحققتم صدق قولى »

فقال الغفارى : « اذا كنت صادقا فيما تقول تعال معى » . ومشى فتبعه الى الدكة فى وسط القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له : « ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام على تنصر نصيره وتحارب عدوه »

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معا ، واقسم

ثم قاده الرجل الى دكة أخرى رفع غطاءها وتناول قارورة فيها مسحوق اسود كأنه الكحل فقال عبد الله : « وما هذه ؟ » قال : « هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن أبى بكر الذى أحرقتموه ظلما ، فاذا كنت تطلب الهداية ونصرة الحق فعليك أن تكتحل بهذا الرماد وتبكى ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثاره . فهل تقبل وتظل على قسمك ؟ »

قال : « انى معكم فيما تريدون وقد صدقتكم القول »

فتقدم صاحبه ففتح القارورة وادخل فيها شيئا علق عليه بعض الرماد فأعطاه الى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع على الرغم منه فشاركه الرفاق فى البكاء

ثم أزاح الغفارى لثامه وقال : « نعم انى صديقك كما قلت ، ولكن اعلم انك اذا كنت على غير ما تقول فانى عدوك اهدر دمك بحد هذا السيف . قل ما بدا لك »

فلما اطمأن عبد الله تذكر سعيدا فقال : « ان لى رفيقا اريد أن ادعوه ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا فى هذا الجهاد »

فقال له الغفارى : « انك لن تبرح هذا المكان حتى خروجنا جميعا فقل ماتريد »

فاطاع وقال : « لا تعجبوا لأنى اموى . فقد أصاب صاحبى الغفارى ؛ فقد كنت من انصار معاوية وكنت مطالبا بدم عثمان ، ولكن طرأ على طارىء ساقص عليكم نباه بعد ؛ اما الآن فأقول انى قادم من الكوفة وقد علمت ان أمير المؤمنين عليا بن ابى طالب قد جمع رجاله هناك فاجتمع له اربعون الف مقاتل، وكلهم مستعدون للنزال وبذل النفس والمال فى هذا السبيل »

فقال الغفارى : « ان رجالنا يعدون بالآلاف وكلهم وكل ما ملكت أيديهم وقف على نصرة الامام ابن عم الرسول »

وهم عبد الله باتمام الحديث فاعترضه احدهم قائلا : « عرفناك امويا من الد اعداء الامام ، فما الذى حملك على نصرته مجازفا بحياتك ؟ »

فاخذ يقص عليهم حديث ابى رحاب ، ولم يكد يفوه بكلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم فانصتوا ووقع الرعب فى قلوبهم ، وخيل اليهم انها دسيسة من عبد الله ، فهموا بقتله ولكنهم ما لبثوا أن رأوا المشاعل منبعثة من مدخل الممر وقد انهالت الشرطة عليهم فارادوا الدفاع عن انفسهم فلم يفلحوا ، وتبدد الشرطة وثاقهم وساقوهم فى ظلام الليل الى الفسطاط

السجينة الامينة

مكث سعيد فى الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فحار فى امره هل يذهب الى عين شمس أو ينتظر عودة عبد الله . ثم غربت الشمس فلم ير بدا من المسير الى عين شمس كما أوعز اليه عبد الله . فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبهما عنه فمشى وقد اوجس خيفة من ابطاء عبد الله ولم يعد يرى المسلتين الا اذا برزتا فى الافق . ثم اختفتا ولم يعد يراهما وخاف أن يضل الطريق . وفيما هو فى ذلك سمع دبيبا وقرقعة كأن جندا قادما وراءه فتنحى عن الطريق فاذا بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة نحو عين شمس فأوجس فى نفسه خيفة . والتفت الى يمينه فراى بيتا قائما فى بستان . فبدا له ان يتوجه اليه يستفهم عن الطريق . فلما دنا منه سمع صوتا خارجا من بعض جوانب الممر استوقف انتباهه فوقف وأصاخ بسمعه فسمع صوتا رخيما يمازجه بكاء ولم ير هناك نورا ولا راى أحدا فى البستان ، فقصد باب البيت فاذا هو موصد ووضح له صوت الباكى فأنصت فسمع صوت امراة تبكى وتقول : « الا تخاف الله يا ظالم ؟ أما كفاك ما واطأت عليه من قتل البرىء حتى رميت الوفا من الناس فى خطر القتل الفظيع ؟ هل من ينبىء هؤلاء الأبرياء بالوشاية بهم فينقذهم من الموت ؟ »

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء . فقرع الباب قرعا خفيفا فانقطع الصوت بغتة ، فصبر هنيهة وكرر القرع ويده ترتعش رهبة فلم يسمع شيئا ، فازداد شوقا الى استطلاع السر ، ولكنه خاف أن يقع فى مكيدة وهو غريب هناك ، فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه أن بين ما سمعه وبين ما يسعى فى البحث عنه علاقة كبرى . وكان الفرسان الذين مروا به قد بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر أفراسهم غير الدوى البعيد . فأيقن أنهم فى طريقهم الى عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها فى ذلك الليل . وبعد التأمل فيما سمعه ورآه أيقن أن فى الأمر سرا يهمه الاطلاع عليه

فهز الباب بيده هزا عنيفا كأنه يفتحه بالعنف فلم ينفتح ولم يعد يستطيع صبرا فقال بصوت خافت : « هل فى المنزل أحد يفتح الباب . . انى غريب ضللت الطريق ! . . »

فاجابه الصوت من الداخل : « ليس فى البيت ســـواى . . والباب مقفل لاسبيل الى فتحه »

فازداد سعيد دهشة واستغرابا وقال : « من انت ايها المتكلم ؟ انى اراك فى ضيق فهل من سبيل الى انقاذك ؟ »

فاجابه الصوت : « يا حبذا اذا استطعته انى حبيبة . من انت ؟ »

قال : « قلت لك انى غريب ضللت الطريق ، أرينى وجهك أوارشدينى الى وسيلة أفتح بها الباب »

قالت : « عالج الاقفال بالعنـ ـلعلك تستطيع فتحها فتنقـــذنى ، وربما انقذت الوفا من التاس معى »

▭

ثارت الحمية فى راسه واستل خنجره وجعل يعالج الاقفال وهى تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منه فتاة محلولة الشعر عليها رداء أهل الفسطاط ولما رأت سعيدا قالت : « من انت أصدقنى الخبر ؟ »

قال : « أصدقينى انت ولا تخافى ، لقد سمعتك تندبين الوفا من الناس فمن هم ؟ »

فتفرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته

ثم قالت له : « من قال لك انى اندب الوفا ؟ »

قال : « سمعتك باذنى . افصحى ولا تخافى »

قالت : « وما يهمك من امر هؤلاء الالوف ؟ »

قال : « اخاف أن أكون منهم »

قالت : « وما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « كنت ذاهبا الى عين شمس فتهت وجئت لاسأل اهل هذه الدار عن الطريق فسمعت بكاءك ، فما خطبك . قولى لقد نفد صبرى »

قالت : « انى اخاف العيون ، ولا اثق باحد بعد أن غدر بى ابى فكيف اثق بالغرباء ؟ »

قال : « رب غريب اقرب من القريب . قولى ولا تخافى »

وفيما هما فى ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس ، فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيدا بثوبه ولم تفه بكلمة ، فدخل فى اثرها وقد تولتـــه الدهشة ولبث صامتـــا . ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الأصوات قائلا يقول : « لقد وقعتم فى أيدينا يا الخائنون وعرفنا دسائسكم » . وسمعا لغطا كثيرا مختلطا فظلا صامتين

حتى مر الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المشاة موثقين

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت : « لقد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة »

فقال : « واى جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس ؟ »

قالت : « نعم انهم قبضوا عليهم وا أسفاه »

فدق سعيد يدا بيد وخرج يرقب الفرسان كانه يريد ان يتحقق طريقهم

فقالت له : « أخالك كنت سائرا اليهم »

قال : « نعم »

فقالت : « لقد نجاك الله من ايديهم وكانما اراد الله ان تضل الطريق لنجاتك»

فاضطرب سعيد واختلج قلبه فى صدره وقال : « بالله عليك افصحى يا اخية فقد نفد صبرى ، وقد علمت غرضى فأخبرينى عن حقيقة أمرك »

قالت : « لم اعد أستطيع البقاء هنا مخافة ان يفاجئنا قادم فتكون العاقبة وخيمة علينا »

قال : « وهل تريدين ان نبعد عن هذا المكان ؟ »

قالت : « نعم هلم بنا ، فاذا خلونا تحادثنا ، وعساك ان تتلافى امرا لا ازال خائفة من وقوعه ، وهو شر عظيم » . قالت ذلك وخرجت فمشت أمامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان واوغلا فى الحقول ، وهو يسير فى اثرها الى حيث لا يدرى ، وكلاهما صامت لا يفوه بكلمة ، حتى دنوا من بناء عالى الجدران كانه لا باب له فقالت له : « هذا دير للقبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون فى مأمن ، ومشت أمامه الى باب صغير فى اسفل الحائط مصفح بالحديد ، فقرعته فأطل عليها من نافذة فى اعلى الحائط راهب فى يده مصباح وقال : « من يقرع الباب ؟ »

ولم تمض هنيهة حتى فتح الباب فدخلا وقد احنيا راسيهما لضيقه فاشرفا على ممر دخلا منه والراهب يسير بالمصباح امامهما حتى انتهيا الى الكنيسة ، فنظر الراهب اليهما فى نور المصباح فعرف ان الفتاة من اهل الفسطاط بل من اشرافهم ، فسر لزيارتهما ورحب بهما وادخلهما الى غرفة مضاءة فى الجانب الآخر من الكنيسة وسألهما : « هل تحتاجان الى شىء ؟ ».

فقالا : « كلا » . فتركهما وقفل راجعا

▭

تامل سعيد الفتاة على ضوء المصباح فوجدها شابة فى مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وذبلت اهدابهما من البكاء ، فلم يزدها ذلك الا

حسنا ، وكانت قد ضفرت شعرها فى اثناء الطريق وغطت راسها بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد فى لهفة على حديثها وقلبه يخفق توقعا للنبأ الغريب ، فابتدرها بالسؤال عن حقيقة امرها ؟

فنظرت اليه ولم تكد تتأمله حتى قالت : « لعلك أحد الغريبين اللذين وصلا الى الفسطاط صباح هذا اليوم ؟ »

قال : « نعم ، وما ادراك بذلك ؟ »

قالت : « رايتكما مع جارنا القفارى ، وها انذا اقص عليك خبرى الغريب، وارجو منك ان تسرع فى تلافى الخطر العظيم الذى سيدهم المسلمين قريبا »

قال بلهفة : « قولى ، انى لهذا الامر اتيت الفسطاط ، فعسى ان اكون قد وقعت على ضالتى »

قالت : « انى اطلعت على سر لا اظن احدا عرفه قبلى ، ألست على دعوة الامام على ؟ »

قال : « بلى انى على دعوته ، وقد جئت فى سبيل نجدته »

وهمت بالكلام ، ثم توقفت برهة واطرقت ، فلحظ سعيد ترددها وادرك انها اساءت الظن به فقال لها : « لا تظنى سرك مجهولا لدى واذا شئت قلته لك . وليطمئن قلبك اقول انه يتعلق بالامام على وفيه خطر على حياته »

فاطمانت ولكنها تنهدت وقالت : « اعلم ياسيدى ان أبى يصنع السلاح ويبيعه فى الفسطاط ، وقد ربيت وانا اسمعه يتشيع للامام على فانغرس حب هذا الامام فى قلبى، وما انا فى حاجة الى مدح ابى الحسن وهو ابن عم الرسول وصهره ، ولكننى ذكرت لك هذا لأطلعك على التغيير العجيب الذى طرأ علينا فقد كنا ندعو ابدا لعلى بالنصر ، حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فلحظت فتورا فى غيرة ابى ، ولكننى لم اعرف لذلك سببا . وقد كنت كثيرا ما اراه يختلى بجار لنا من بنى مراد ، كان يعلم الناس القرآن ، وكنت احسبه من اهل التقوى . ولكننى وجدته وا أسفاه من اهل العداء . وما زالا يتساران فى امر هذا العداء ولا يجرؤان على التظاهر به لان مصر فى حوزة الامام على وعاملها محمد بن ابى بكر . فلما جاءنا ابن العاص بخيله ورجله ، وحارب دعاة على فقتل ابن ابى بكر قتلة لم يسبق لها مثيل فى الاسلام، استقام الامر للأمويين ، فجاهر ابى بعداء على ، وكان جارنا المرادى يزيده كرها له . فعلمت انهما تشيعا للخوارج ، فظللت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لا سبيل لى الى شىء اعمله وانا فتاة ضعيفة كما ترى . وكان ابى يظننى على دعوته . ففى ذات يوم جاءنا ذلك المرادى يخطبنى من ابى فقبل ، اما انا فلم اجب خوفا من اكراهى على الزواج ، وصممت على الفرار اذا حملنى ابى اليه كرها ، وما زلت اماطل فى عقد القران الى الآن »

عبد الرحمن بن ملجم

كانت الفتاة فى أثناء كلامها عن الزواج مطرقة حياء فلما بلغت هذا الحد رات سعيدا مصغيا كأنه يتطلع الى اتمام الحديث فقالت : « ولا اطيل عليك قبل ان اصل الى جوهر الموضوع فاقول انى احتملت الامر بالصبر ثم علمت أن المرادى خرج الى مكة فظننته حاجا وتمنيت الا يعود ، ولكننى ما لبثت ان رأيته قد عاد »

قالت ذلك وتنهدت وسعيد ينتظر لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة الحديث

فقالت : « عاد المرادى بمهمة جديدة ليتنى مت قبل ان اسمع نباها . فأذا لم أجد من يتحمل المشقة فى تلافيها تلافيتها بنفسى . . . جاء هذا المرادى ثانى يوم وصوله إلى الفسطاط ، فخلا الى ابى كل الليل ، وانا لا اعلم ما دار عليه حديثهما ، ثم بلغنى انه اوصى ابى بأن يصنع له سيفا ماضيا انفق عليه الف درهم ، وقضى مائة يوم يشحذه فلم أفهم معنى هذا الاستعداد ، ولا اهتممت به ، وبعد أن شحذه كلف ابى فسقاه السم . وقد علمت انه انفق على سقايته الف درهم ايضا . فويل لجسم يجرحه هذا السيف ولو جرحا خفيفا »

فمل سعيد ولم يعد يستطيع صبرا على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضه بسقاية السيف ، وخامره الشك فى انه ربما كان بعد لقتل الامام علي . وكان قد صبر نفسه حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنه مل الانتظار فسألها قائلا : « وما اسم هذا الرجل ؟ »

فقالت : « اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادى »

فلم يذكر انه يعرفه ، اما خولة فتنهدت وقالت : « فلما رأيت منه هذا الاستعداد المريب عمدت الى الحيلة ، فلما جاءنا فى صباح امس يودع ابى وقد عزم على الكوفة ، قلت فى نفسى : سيذهب الرجل وانا جاهلة السر ، فتظاهرت باعجابى بشجاعته واقدامه ، واطريت غيرته على الاسلام ونحو ذلك ، وسألته ان يرينى السيف لاتامل فرنده ، فجاء به واوصانى ان اتقى حده لأن جرحه يميت ، فسللته بحذر ، فاذا هو يلمع لمعانا تقشعر منه الابدان ، فارتعد جسمى ولكننى اظهرت الجلد وقلت : أراك انفقت مالا كثيرا

على صقله ، ما الفائدة من هذا اللمعان ؟

فضحك مستخفا وقال : « اتحسبيننى انفقت كل ذلك المـال على صقله فحسب ؟ »

قلت . « وماذا هناك ، انى لا ارى فيه غير اللمعان »

فقال : « لقد سقيته السم »

فتظاهرت بالدهشة وقلت : « ولأى شيء هـذا ؟ » . وما زلت احاوره واجادله حتى خدع فقال : « اعلمى يا خولة انى سأقتل بهذا السيف رجلا يزعمون انه اكبر رجل فى الاسلام ويقولون انه أقربهم الى الرسول » . قال ذلك والشر باد فى عينيه واصفرار اللؤم يتخلل ما كان يحاوله من الابتسام . اما انا فلما سمعته ارتعدت فرائصى واختلج قلبى وأظنه قرأ ذلك على وجهى . كيف لا وقد ظهر لى انه يريد قتل الامام على . ولكننى اردت التثبت فقلت : « ومن هو ذلك الرجل ؟ » . فقال : « ألا تعلمين من هو ؟ الا تعرفين سبب كل هذا الانقسام ؟ فاذا كنت لم تفهمى بعد فأقول لك انه على بن ابى طالب الذى يدعوه أشياعه امير المؤمنين » . قال ذلك واحمرت عيناه وتجلى الغدر فى وجهه وقال : « احذرى أن تبوحى بذلك لأحد ، والا اصابك جرح من هذا السيف » . قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل . اما انا فتحققت انه يقتلنى ولا يبالى ، فالذى يجرؤ على قتل امير المؤمنين كيف لا يقتل فتاة مثلى . فلم استطع جوابا وخفت اذا انا نطقت ان ينكشف امرى ، فسكتت وقد عولت فى سرى على السعى لابلاغ امير المؤمنين ذلك على عجل ، لأن موعد القتل قريب واظنه فى ١٧ رمضان ، لأنى كثيرا ما كنت اسمعه يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ، ولم اكن افهم مراده وقتئذ . واما الآن فقد تأكدت انه عازم على قتل الامام على فى ١٧ رمضان ، ونحن الآن فى اواسط شعبان واخاف أن ينال هذا الرجل بغيته قبل ان يبلغ الخبر عليا . آه يا ليتنى طير لأحمل الخبر اليه »

▭

نهض سعيد عندما سمع كلام خولة ، وجعل يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا والحمية ملء راسه ، وندم على تركه الكوفة قبل ان يطلع الامام عليا ، ولكنه تذكر انه لم يكن يعرف اسم المجرم الذى يريد اغتيال حيـاته ، فلم تكن ثمة فائدة من اعلامه ، أما الآن فانه يذهب اليه بالخبر اليقين

وكان مع شدة اضطرابه بعد أن سمع حديث خولة لايغفل عما يتجلى فى وجهها من ملامح الجمال وما فى حديثها من صـدق اللهجة ، وقد اعجبه منها بنوع خاص غيرتها على الامام على ، فشعر بميل اليها . ولـكنه تذكر عهده

لقطام وما يظنه من حبها له فراى الا يطلق لنفسه العنـان فى حب سواها . على أنه ما لبث ان عاد الى التفكير فى عبد الله ومصيره وسبب وجود خولة فى ذلك البيت المنفرد . فقال لها : « لا أدرى يامولاتى ما الذى ساقنى الى منزلك حتى حظيت برؤيتك وسمعت هـذا الحـديث الذى جئت الفسطـاط من اجله . ولا أخفى عليك انى كنت عالما بعزم بعضهم على الفتك بالامام ، ولكننى لم اكن اعلم اسم ذلك المجرم ، فجئت الفسطاط ومعى رفيق من ذوى قرابتى كان قد سبقنى فى صباح هذا اليوم الى مجتمع العلويين فى عين شمس ، على ان يعود الى بخبرهم ، فلما ابطأ سرت فى اثره وانا لا أعرف الطريق فضللت فى الظلام حتى اهتديت اليك لحسن حظى . ولكننى فى قلق على رفيقى فانه يلوح لى ان الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ، وربما قبضوا على انصار على هناك . . الا تظنين ذلك ؟ »

فقالت خولة : « لو صبرت حتى تتمة حديثى لكفيت نفسك مؤونة الظن ، ويلوح لى انك تود الاطلاع على سبب وجودى منفردة فى ذلك البيت المغلق ، فاعلم انى لما سمعت حديث المرادى سكت وكظمت غيظى ، فخرج الرجل واظنه شخص الى الكوفة ، ولبثت انا فى حيرة لا ادرى ماذا اعمل ، فقضيت امسى فى الهواجس والظنون ، وكلما تصورت عليا مقتولا بسيف هـذا الغادر يقشعر بدنى . وكان ابى يخرج الى حانوته فى الصباح ولا يعود الا فى المساء ، وعندنا فى المنزل عبد ربانى منذ حداثتى وهو يحبنى ويكرمنى ، وكنت قلما اكلمه ، فخطر لى ان انتهز فرصة غياب ابى واكلم العبد عساه ان يطلعنى على نبأ جديد ، او لعلى افهم شيئـا آخر . لأن حديث ابن ملجم اتعبنى واقلق راحتى ، وليس لدى من اشكو اليه امرى ، او اكاشفه سرى . فخرجت من حجرتى لادعو العبد فلم اجده ، فناديته باسمه فابطأ ولم يجب ، فنظرت من الدار الى الطريق فرايته واقفا مع عبد آخر غريب وهما يتهامسان . فلمـا رآنى خجل واسرع الى ، فدخلت غرفتى ودخل هو فى اثرى وعلى وجهه آثار الاضطراب كانه سمع خبرا غريبا يريد أن يقصه على . فقلت : (اين كنت وقد دعوتك فلم تجب ؟) . قال : (كنت مع عبد قادم من الكوفة فى مهمة سرية الى الامير عمرو) . فقلت : (وهل اطلعك على خبرها ؟) . فاراد أن يبرهن على ثقته بى فقال : (انه اطلعنى على سر لا اظن احـدا يعرفه فى كل الفسطاط سوى الامير وبعض شرطته) . ثم اخبرنى ان ذلك العبد الذى كان معه جاء الى الامير عمرو بأن انصـار على يجتمعون سرا فى عين شمس يوم الجمعة ، وان عمرا ارسل جندا للقبض عليهم او قتلهم فى ساعة الاجتماع » . فلما سمعت ذلك لم املك عن البكاء لشدة الغيظ ، ورايت فرضـا على ان ابلغ المجتمعين ذلك الخبر ليحذروا . ولـكننى لم اكن اعرف احدا اثق به فى انفاذ هذه المهمة فعولت على الذهاب بنفسى ساعة الاجتماع . فاصبحت اليوم وانا انتظر خروج ابى الى حانوته ، لأتنكر واسير الى عين شمس ، فلم يخرج

ورايته مضطربا كأن العبد اخبره بالحديث ، وبأنه اطلعنى عليه ، فخاف ابى ان ابوح به لاحد قبل القبض على المجتمعين . فلازمنى حتى الظهر ، ثم دعانى الى الخروج من الفسطاط للنزهة ، فأتينا هذا البيت وهو بيت لشريك لنا فى الفلاحة وليس فيه أحد ، فلم اظهر استغرابى ولم اقل شيئا لأنى كنت عالمة بأن ابى سيكون فى جملة الذاهبين الى عين شمس فلا بد له من أن يتركنى ، فاذا تركنى خرجت وانا على مقربة من المكان . وما علمت ما اضمره لى فانه لم تكد الشمس تميل الى الغروب حتى خرج متظاهرا بأن امرا ما يدعوه الى الذهاب ، وادعى انه اقفل الباب على خوفا من الغرباء او ابناء السبيل ، وهو يعلم انى لا أستطيع النداء والاستنجاد لأنى إذا تظاهرت بنصرة الامام كنت من المغضوب عليهم ، فظللت هناك حتى جئت انت ورايتنى فى هذه الحال . فلاشك انهم قبضوا على زميلك فى جملة من قبضوا عليهم من الانصار »

قال سعيد : « هل ترين بأسا عليه ؟ »

قالت : « اظنهم يسجنونه ليستجوبوه ، ثم اذا راوا قتله قتلوه ، وكذلك يفعلون برفاقه . ولكن لابأس عليه باذن الله وسنتدبر امره . على انى اخاف اذا عاد ابى ولم يرنى فى البيت ان تزيد نقمته على ، فأرى أن اذهب الى منزلنا فى الفسطاط ، واتظاهر بأنى خفت من البقاء فى البيت وحدى ففتحت الباب بأسلوب ما واتجاهل كل ماحدث ، فماذا انت صانع ؟ »

قال : « أود أن اسرع الى الكوفة لارى ابن ملجم فاقنعه بالعدول عن جريمته ، أو اخبر الامام عليا »

فبادرته قائلة : « وكيف تقنعه وهو لا يقنع ، بل قد يسرع فى القتل ؟ ليس افضل من ان تطلع الامام عليا على الأمر وهو يرى ما يراه »

قال : « وكيف افعل برفيقى هل اتركه فى السجن ؟ »

قالت « اخاف اذا تأخرت هنا أن تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة ، وانى لاعجب منك كيف كنت عالما بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها عليا وانت فى الكوفة ؟ »

فتنهد وقال : « كفى الملام فقد وقع ما وقع ، وكنت أظن الكتمان يبعد المصيبة ، وفاتنى أن اخبرك بأن المؤامرة ليست على مقتل الامام على فقط ، بل هى كذلك على مقتل عمرو ومعاوية أيضا » . وقص عليها الخبر موجزا

□

استغربت خولة الخبر وقالت : « مالنا ولهذين ؟ اننا نريد الدفاع عن الامام على الآن ، ولكننى لم افهم كيف انتقل خبر قدومكما الى هنا وأنت تقول انه كان سرا مكتوما لم يطلع عليه أحد »

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام ، ولكن الحب اعمى بصيرته فانتحل سببا آخر وقال : « لا ادرى » . وخطر له ان يقص حديثه مع قطام ثم امسك عن ذلك حفظا لعهدها ، ولا عجب فهو سليم النية لا يعرف الدهاء ؛ ولهذا لم يطلق لعواطفه الحرية فى حب خولة ، مع ما آنسه فيها من جمال وكمال وتفان فى نصرة الحق

على انه أدرك خطأه فى كتمان خبر المؤامرة عن على الى ذلك الحين ، ولكنه حمله على اهمال من قطام لا على سوء قصدها ، ومع ذلك فقد راى الأمر سهل التلافى ولايزال ثمة باب مفتوح لانقاذ على بابلاغه خبر المؤامرة ، وهذا يدعو الى السفر السريع ، وهو لايعلم ما آل اليه حال عبد الله فقال لها : « انى عازم على الكوفة فى أقرب وقت ، فما الذى أفعله برفيقى وأنا لا ادرى أحى هو أم ميت ؟ »

قالت : « غدا نعرف الحقيقة ، دعنى اذهب الآن الى منزلنا بالفسطاط ، وامكث أنت هنا الى الصباح »

قال : « كيف استطيع البقاء هنا وحدى ولا صبر لى على استطلاع خبر عبد الله ، فأرى أن ادخل الفسطاط واتردد الى المسجد ، اذ لا يعرفنى احد هناك ، فاما ان اسمع خبرا ممن يفد على المسجد من المصلين أو تبعثى الى بالخبر »

قالت : « لك الخيار فى ذلك » . ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفارى للمبيت وهو لا يدرى ان الرجل فى عداد المقبوض عليهم ، وقد اصبح بيته موضع شبهة ولم تكن خولة تعلم ذلك ايضا

وكان الجند بعد القبض على المجتمعين قد ساقوهم فى الأغلال الى السجن، وكان عمرو ينتظرهم فى داره فلم يصبر الى الصباح وأمر باستقدامهم اليه واحدا واحدا ، فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر له انهم على غير دعوة بنى امية خصوصا الغفارى . ولما وصل الى عبد الله غرف انه من بنى أمية وعرف قرابته من أبى رحاب ، ولكنه تجاهل ذلك ، وأمر بأن يسجن كل منهم فى حجرة على حدة ، وبعث جندا يفتشون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شىء جديد ، ولم تمض ساعة حتى دهم الجند منازل العلويين وأخذوا ما فيها

□

لما ذهب سعيد الى بيت الغفارى سأل عن صاحبه فقالوا له : انه خرج منذ الظهر ولم يعد . فلم يخطر له انه فى عداد المقبوض عليهم ، فدخل

الحجرة التى وضع فيها ثيابه وحاول ان ينام ، ولم يكد يلقى رأسه على سريره حتى تراكمت عليه همومه فأخذ يفكر فى عبد الله وماذا عسى أن يكون أصابه ، وخاف ان هو ابطأ فى الذهاب الى الكوفة أن ينفذ ابن ملجم جريمته فيذهب سعيهم عبثا

وفيما هو فى هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطا فى الدار ، ثم علت الضوضاء وضج الناس فوقف وتسمع فاذا برجال عمرو قد دخلوا المنزل واوغلوا فى النهب وآذوا كل من تعرض لهم فأيقن انهم آتون الى حجرته ، وسيفتكون به ، فتقلد حسامه والتفت يمينا وشمالا لعله يجد مخرجا ينجو منه فسمع صوتا يناديه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت وعرف انه صوت خولة ، ولم يكن له سبيل الى رؤيتها غير نافذة عالية يشرف منها اذا صعد على مرقاة ، فاحتال فى الصعود اليها واطل وكان الظلام حالكا ولكنه رأى شبحا وسمع صوت خولة تقول له : « انهم سيفتكون بكل من فى المنزل ، فاليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج، وسيظنونك امراة فلا يتعرضون لك » . فمد يده وتناول الخمار والجلباب فارتداهما وهو يرتعش مخافة أن تفاجئه الشرطة قبل خروجه

فلم يكن الا كلمح البصر حتي فتح باب الغرفة وخرج بزى امراة فراى الضوضاء على اشدها ، ولم يتعرض له أحد فى ابان النهب ، فمشى الى الشارع وراء البيت فراى خولة واقفة فلم يتمالك عن الاعجاب بشهامتها والاقرار بفضلها برغم دهشته وبغتته . ثم رآها تمشى امامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى مكان منفرد فوقفت وقالت له : « الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام على » . فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة : « لا تعجب لقولى فان حياة الامام على تتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذى يتهدده سواك . نعم انى انا اعرفه ايضا ولكننى لا ارانى استطيع الذهاب ولا آمن على السر احدا »

فقال : « اما انا فلا مطمع لى فى الحياة الا بانقاذ الامام من القتل وانت صاحبة الفضل ، ولكن كيف عرفت بالخطر المحدق بى حتى جئت بهذه الحيلة »

قالت : « علمت من ابى ان عمرا امر بنهب منازل العلويين والقبض على من فيها من الرجال، واخبرنى ايضا ان الغفارى كان من المقبوض عليهم ، وقد علمت انك مقيم بمنزله فجئت اليك بهذه الحيلة . فالحمد لله على سلامتك »

فشعر سعيد بفضل خولة واحس بميل اليها ولكن حبه لقطام مازال غالبا على قلبه لايترك له سبيلا الى سواها

وبعد التأمل برهة قال : « وما العمل الآن ؟ انى عازم على الكوفة عاجلا ، ولكننى لا ادرى ما الم بعبد الله ولا مايؤول اليه حاله . هل علمت شيئا عنه ؟ »

فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء ما تعلمه ،

فظنها لم تسمع كلامه فأعاد السؤال . فقالت : « لايعلم المستقبل الا الله ؟ »
فلم يعجبه جوابها فقال : « افصحى عما تعلمينه ياخولة »
قالت : « ان عمرا أمر بقتل العلويين فى فجر هذا الصباح ولكن من يدرى ماذا حدث ؟ »

فاختلج قلب سعيد ايما اختلاج ، وشعر كأنما صب عليه المـاء الساخن ، وقال : « ماذا تقولين ؟ هل يقتلون عبد الله ؟ كيف يكون هذا ؟ »

فقالت : « دع الامر لله واعذرنى . انى لا استطيع البقـاء معك طويلا لئلا يفطن أبى لغيابى فلا انجو من القتـل . واما انت فحيـاتك فى خطر عظيم ، فاخرج من الفسطاط حالا »

فابتدرها قائلا : « كيف أخرج واترك عبد الله يقتل ؟ انه ابن عمى واعز من اخى . كيف العمل ؟ »

فقالت له : « لاخيرة فى الواقع ، فان شرا واحدا اهون من شرين ، والوقت ضيق لامجال فيه للسعى أو البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبد الله اذا قدر الله قتله ، ونحن الآن فى منتصف الليل وسينفذ القتل عند الفجر » . قالت ذلك وسكتت هنيهة

فابتدرها سعيد قائلا : « ما قولك فى ان اقابل ابن العاص ، وانبئـه بعزم بعض الناس على قتله واحذره من الوقوع فى الخطر ؟ الا تظنينه يعفو عن قتل عبد الله مكافاة على هذا الجميل ؟ »

قالت : « ربما عفا ، ولكنه لدهائه ولقسوته قديظن فى قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى ١٧ رمضان ، فاذا لم يظهر صـدقك قتلكما معا . فهـل انت واثق من مجيء المتـآمر على قتـل عمرو فى ميعاده ، حتى لاتكون النتيجة زجك بنفسك فى التهلكة ؟ اترك هـذا الامر لى فلعلى اهتدى الى وسيلة اذهب بها الى عمرو واطلعه على هذا السر ، فاذا رأى أن يقبض على فليفعل ولله الامر . اما انت فسر الى الكوفة قبل فوات الفرصـة لأن الوقت قصـير ، ووقتى الآن اقصر منه . والآن دعنى اذهب الى أبى قبـل ان يعلم بغيابى فيعرقل مسعاى ، واقصد انت الى الدير الذى كنا فيه فى اول هـذا الليل وساتيك بالخبر . ولاتنس ان تنزع النقاب والازار وادخل بثوب الرجال فرئيس الدير يعرفك فلا يسىء بك الظن » . وانصرفت مسرعة الى منزلهـا وهو يود لو أنها لاتفارقه

▭

مشى سعيد وهو مضطرب قلق لايدرى الى اين يسير فاذا به قد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة ترعة ظنها لأول وهلة نهر النيل . ثم راى ضيقها

فعلم انها خليج . وكان الظلام حالكاً فوقف برهة يفكر فى عبد الله ومصيره والخطر المحدق به فازداد قلقا

وظل واقفا مشرد الذهن وحانت منه التفاتة فراى بالقرب منه نخلة فجلس على حجر تحتها واسند ظهره اليها وجعل يسبح فى بحر خياله ومصائبه . فتذكر قطام ووعودها وما مر له معها من الاحداث . وكان الجو هادئا لايكدره الا نقيق الضفادع على شاطىء الخليج فتشاءم وخيل اليه ان عبد الله قد مات ، فرجف وجلا وقال فى نفسه : « ابقى انا هنا وعبد الله فى الخطر الشديد ؟ ماذا تكون حاله مع عمرو ؟ . ايقتله ام يستبقيه ؟ وماذا اعمل : هل ابقى فى الفسطاط لانقذه من القتل ؟ ام اسير الى الكوفة لانقاذ الامام على ؟ ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد امر بقتل عبد الله فى صباح الغد ؟ لابد من المبادرة الى انقاذه » . قال ذلك ومشى محاذيا الخليج جنوبا وهو ينظر اليه ، فتذكر انه خليج امير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاما لارسال المؤونة فيه الى الحجاز تلافيا لما كانوا يخافونه من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب لما كانت الخلافة فى المدينة ، فتذكر حال الاسلام فى ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة فى الشام ومصر والعراق فى بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم ، وشغلوا عن تثبيت ملكهم بالحروب الاهلية حتى اصبحوا يقتلون خلفاءهم ويتهمونهم تهما ما انزل الله بها من سلطان . واقبح ما آلت اليه الفتنة تآمرهم على قتل امرائهم ، ولا سيما الامام على وهو ابن عم الرسول وخيرة قواد المسلمين ، ولا ذنب له غير العمل على تأييد الكتاب . فلما تصور تلك الحال انقبضت نفسه وحزن حتى كادت تخنقه العبرات وهو لايدرى ايبكى عبد الله ام يبكى الاسلام ام يبكى الامام عليا ام يبكى سوء حظه الذى قاده الى الفسطاط فوقع فيما هو فيه ؟

وكأنما اعترته هزة من الحماسة فوقف على الخليج وجعل يناجيه قائلا « ايها الخليج ، أليس امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، هو الذى اشار بحفرك قل لى بمائك الذى يجرى فيك هل علم ابن الخطاب لما اذن بذلك ان دولة الاسلام سيقضى عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على خلبفتهم ليقتلوه . ثم يختلفوا على الخلافة ليقتسموها ، ثم يختصموا على اقتسامها ؟ . هل خطر لابن العاص يوم نزل وادى النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل انه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن ابى بكر حرقا بالنار ، ثم ينقم على ابن عم الرسول فيخرج الخلافة من يده بالحيلة ؟ . اين هو عمر جامع كلمة المسلمين ؟ . كانت المدينة مقر الخلافة فى عهده فاصبحت منقسمة على نفسها يدعيها غير اهلها . . رباه ما هذه الحال ؟ ياليتنى مت قبل هذا . هنيئا لك يا ابا رحاب ان عظامك ساكنة فى التراب وروحك تنتظر لقاء ربها يوم الحساب

اما انا فانى تائه بعدك تتنازعنى عوامل لا ادرى مصدرها ولا أعلم مصيرها ، ابقى هنا لأرى مصير اخى عبد الله ؟ ام اسرع الى الكوفة لانبىء الامام بما تآمروا به عليه ؟ . ولكن ما الفائدة من بقائى ؟ هل يعفو عمرو عن عبد الله فيبقي حيا فاراه ؟ ما أظنه يفعل ، وما أظن اننى استطيع الدفاع عنه ؟ »

ثم تذكر خولة فقال : « آه ياخولة ، يخيل الى انك ملك كريم ارسلك الله لترشدينى الى سواء السبيل . . فهل يتم السعد على يدك وتنقذين عبد الله من القتل ؟ »

وفيما هو فى ذلك يمشى الهوينى على ضفة الخليج ، سمع لغطا وحركة عن بعد ، فأجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره ، فعلم انه بجانب فم الخليج عند اتصاله بالنيل ، ورأى فى النيل سفنا كبيرة وسمع دويا عميقا كان لصوصا يهمسون فيما بينهم ويحاذرون أن يسمعهم أحد . وكان ما زال بلباس النساء فخاف أن يراه أحد فينكشف امره ، فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطىء ، ثم تسلق احد فروعها واختبأ بين الاغصان والاوراق مبالغة فى الحذر حتى اذا استقر على غصن غليظ جعل يتفرس فيما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلا يحيطون بآخرين فى مثل عددهم كانهم أسرى مغلولون يساقون الى قارب كبير ، وسمع بعضهم يقول : « الى اين انتم ذاهبون بنا فى هذا البحر ؟ لعلكم تريدون اغراقنا ؟ » . فشجبه احدهم قائلا : « وما علينا اذا اغرقناكم ، وانتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان ؟ »

فصاح آخر : « اهذه اعمال ابن العاص ، يقتل الرجال غيلة ؟ . اما كفاه انه طلب الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقا ؟ . . اما تخافون الله ؟ الا تخافون يوم القيامة ؟ »

فصاح به آخر وقال : « لاتخف اننا امرنا بنقلكم الى جزيرة الروضة تبقور فيها اياما » . ثم علت الضوضاء فعلم سعيد انهم انصار على الذين قبض عليهم تلك الليلة فى عين شمس . فظن ان ابن العاص اشار بقتلهم غرقا فى النيل ، فارتعدت فرائصه حتى كاد ان يقع ، وحدثته نفسه ان ينزل لنصرتهم ، ولكن الخوف غلب عليه فانه اعزل وهم عصبة كبيرة بالسلاح ، فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف غضبا ، وتسمع لعله يسمع صوت عبد الله او يراه فلم يسمع شيئا ولم ير شيئا ، وما هى الا دقائق معدودة حتى احتوى القارب القوم ثم أداروا الدفة وهو ينظر اليهم وقد ندم على سكوته وود لو انه اظهر نفسه لعله يستطيع نجدة اولئك المظلومين أو يقتل . ثم تذكر ان فى بقائه حيا نفعا للامام على ، فمكث برهة كأنه فى حلم يتردد بين الندم والاسف حتى توارت السفينة عن بصره فأيقن ان عبد الله ملاق حتفه وسيذهب ومن معه طعاما للأسماك

واشتد اضطراب سعيد وهواجسه ، ثم بكى ونزل من الشجرة وهو يندب

عبد الله ويوبخ نفسه لضعفه وتردده قائلا : « اأرى عبد الله يساق الى القتل ولا انصره ؟ يا للجبن ويا للخيانة ! . وكيف اتخلى عن رجل ذهب ضحية حبه لى ، فانه لولاى لم يأت الى هنا ولا راى ما رآه من الشقاء . . فما الفائدة من حياتي الآن اني لا استحق البقاء ولا بد من أن القى نفسى فى هذا الماء لعلى القى صديقى عبد الله » . قال ذلك وهم بأن يلقي نفسه فى النيل فشعر بقوة خفية أوقفته بغتة ، وفكر فى الامام على وما يحدق به من الخطر فقال : « اذا قتلت نفسى فانما اقتل عليا معى . نعم اقتله لانى اذا لم اذهب الى الكوفة وانبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلا بذلك السيف المسموم . آه ياخولة أين وعدك بانقاذ عبد الله ؟ . . ولكن ماذنبك وانت لاتعلمين انهم سيسرعون فى القائه فى أليم قبل الصباح . . هذا دهاء ابن العاص ومكره . ولكنه سوف ينال جزاءه من اولئك المتآمرين . . ليتنى انبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبد الله . ولكن قضى الامر ولا خيرة فى الواقع »

ثم سكت وجعل ينظر فيما حوله وقلبه لايطاوعه على التطلع الى اتجاه القارب . فأراد أن يعود الى المكان الذى أتى منه فراى شبحا مسرعا نحوه فخاف وتهيأ للقتال اذ رآه يقترب منه . فلما اقترب الشبح اذا هو امراة فعجب لقدومها وحدها فى ذلك الليل ولكنه ما كاد يتفرس فى قيافتها حتى علم انها خولة ، فخفق قلبه وغلب الخجل عليه لما رآه من جرأتها واقدامها ليلا وهى فتاة لايحملها على القدوم ألا السعى فى انقاذ عبد الله . فحدثته نفسه أن يختبىء خجلا ، ولكن المفاجاة اذهلته فدنا منها وناداها . فلما عرفت صوته صاحت : « اين عبد الله ؟ »

فأراد أن يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبرات

فدنت منه وهى تقول : « سعيد ، هل رايت احدا جاء الىٰ هنا ؟ وما الذى جاء بك انت ؟ »

قال : « رايت الشرطة يحملون الاسرى فى قارب »

قالت : « واين هم ؟ اين ذهبوا بهم ؟ . . هل رايت عبد الله معهم ؟ »

قال : « أخذوهم فى القارب ، ولا ادرى اذا كان عبد الله معهم أم لا ، لأنى لم اسمع صوته ولا رأيته »

ـ فدقت يدا بيد وقالت : « لابدمن أن يكون معهم . آه ما الحيلة الآن؟ ماكنت أظن ابن العاص يعجل بقتلهم هكذا . . ولماذا لم تحاول الدفاع عنهم ؟ »

فقال والاعتذار والخجل يتنازعانه : « لم أكن اعلم ان عبد الله معهم ، وهبى انى علمت فكيف أستطيع انقاذه وأنا اعزل وهم جماعة مسلحون ؟ »

فصمتت خولة ثم قالت : « حسنا فعلت فأبقيت على نفسك لانقاذ الامام على ، لأن حياته موكولة الى الاسراع فى رجوعك »

فقال بلهفة : « وانت ما الذى جاء بك وكيف عرفت امرهم ؟ »

قالت : « علمت ذلك من عبدنا ، وكنت قد اعددت حيلة ادخل بها على عمرو لاستمهله فى امر عبد الله باطلاعه على سر المؤامرة ، فعلمت انه بعث بهم هذه الليلة لاقائهم فى النيل حذر الفتنة ان هو قتلهم جهارا ، وهو يعلم كثرة انصارهم فى الفسطاط . فاسرعت لعلى استطيع انقاذ عبد الله ولكن لم يسعفنى القدر . . وا أسفاه عليك ياعبد الله . آه من أهل الظلم . ان ابن العاص غلب عليا بحيلته فأخرج الخلافة من يده لسذاجة ابى موسى الاشعرى ولكنه لن ينجو بنفسه من غائلة المؤامرة »

ثم دنت من سعيد وقالت : « ان فقد عبد الله مصيبة علينا لانه شهم وسيذهب ضحية مروءته ، على اننا نرجوان نعتاض عن فقده بانقاذ الامام على من خطر القتل ، فاركب الى الكوفة على عجل وتمم المهمة التى حثت من اجلها . فها قد عرفت اسم المتآمر ، وانه سار الى الكوفة فاسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة »

وكان سعيد مع شدة تاثره بما رآه تلك الليلة من الاهوال لايغفل عما ابدته خولة من الحمية والشجاعة فازداد حبا لها واعجابا بشهامتها ، وفيما هو يفكر فى ذلك ابتدرته قائلة : « اعلم يا سعيد انى خرجت الليلة من بيت ابى مجازفة بحياتى وانا احسبك فى الدير كما تواعدنا ، وكنت عازمة على الذهاب لاحثك على السفر ثم اعود الى ابى وانتحل له سببا لخروجى . أما وقد التقينا هنا فانى استودعك الله وارجو منك ان تسرع فى الذهاب ، وسارسل اليك جملا مع عبدنا ليسير فى ركابك الى الكوفة »

فاعجب سعيد بحسن تدبيرها ورباطة جاشها ، ورأى نفسه ضعيفا بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال : « سيتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الاسود قريبا وها انذا ذاهب الى جبل المقطم ، فهل يوافينى عبدك وجملك الى هناك ؟ »

قالت : « انه سيوافيك حتما . سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . ان ابن ملجم قد سبقك الى هناك . . هل علمت ذلك ؟ » . ومدت يدها اليه فصافحها ويده ترتعش وقد نسى نفسه لحظة ، ثم ما هو بسبيله ، فاخذ يودعها وقلبه يضطرب حبا لها ، واعتزم ، وبين نفسه اذا نجح فى مهمته ان يطلق لقلبه العنان فى التقرب من خوله قال لها : « آمل ان تذكرينى وتدعى لى بالتوفيق »

قالت : « اذهب فانى معك بقلبى وان لم ابرح الفسطاط ، وارجو ان نلتقى يوم ينجو الامام من ايدى الظالمين وينال ما يستحقه من الاستئثار بالخلافة »

ثم ودعته والحت عليه فى الاسراع فى السفر ، وأكدت له ان عبدها سيلاقيه ومعه الجمل وراء المقطم ، ثم توجهت الى الفسطاط

فلما تركته وحده أدار وجهه الى النيل حيث كان القارب ، وتأوه وتحسر وقال : « أستودعك الله ايها الصديق الحميم ، أستودعك الله ايها الأخ الحبيب، هيئا لك ذهابك ضحية فى سبيل نصرة أمير المؤمنين فستلقى ربك باسما مفتخرا ، فادع لى أن ألقاه أنا ايضا منتصرا على القوم الظالمين »

قال ذلك واتجه نحو جبل المقطم ، ولم يدركه حتى انبلج الصبح ، فلقى العبد قد سبقه الى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر

▭

فلنتركه سائقا ظعنه يطوى البيد طيا ، ولنعد الى قطام بالكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره . وكانت قد أرسلت عبدها الى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبد الله ثم خلبت بلبابة فقالت لها : « لقد تمت لنا الحيلة فى قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . وبقى علينا أن نعلم من هو المتآمر على قتل على ، فاذا عرفناه شجعناه على قتله وساعدناه »

فضحكت لبابة وقالت : « انه لأمر سهل ، فان عبدك ريحان ماهر داهية أخذ عن سيدته ، ولا نظنه الا عائدا الينا بالخبر اليقين ، وأما تحريض المتآمر على القتل فهو أسهل ، ولاسيما اذا رأى هذا الوجه الجميل فيفتن به لا محالة ، فما عليك حينئذ الا أن تعديه بالزواج وتجعلى قتل على مهرا لك فما قولك؟»

فقالت قطام : « بورك فيك يا خالة ، أما وعده بالزواج فأمر سهل على . ولا نظننا نحتاج فى البحث عن ذلك الرجل الى مشقة فانه اذا دنا الميعاد المضروب لابد قادم الى الكوفة ، واذا جاءها فلا بد من أن يطلع أحدا من أهلى على عزمه لعلمه اننا على دعوته . فاذا عرفناه هان على كل عسير »

ولم يهل شهر رمضان حتى تحدث أهل الكوفة بتوقع حادث فظيع يخشى منه على حياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وكان الناس يتداولون الخبر همسا ولا يعيرونه اهتماما لعدم نهوض الدليل من شاهد أو عارف للقاتل المنتظر ، فضلا عن علم العقلاء أن أمثال تلك الاتساعات تروج فى مثل ما كان فيه الامام على يومئذ . ولم يفت الامام وحاشيته شيء من تلك الاتساعة ، ولكنهم لم يعبأوا بها وأخذها أهله وأصحابه على أنها اشاعات ينشرها ذوو الأغراض . هذا مع العلم أنك قلما ترى حادثا فظيعا لم تتقدمه الاشاعات المنبئة بقرب وقوعه . ومهما يكن من الأمر فان أهل الكوفة كانوا ينتظرون ببلاء يتوقعون نزوله بأمير المؤمنين ولكن اكثرهم كانوا لا يكترثون

ومضت أيام من شهر رمضان ، فتلفتت قطام لنعرف من هو المتآمر على قتل الامام على لتنصره أو تحرضه . فلما اقترب نصف الشهر ولم يأت أحد ولا سمعت بأحد ظنت المتآمرين قد رجعوا عن عزمهم تهيبا وفرقا .

واستبطأت عودة عبدها ريحان ، وكانت فى انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئا عن المؤامرة ، ولكنى تسأله عما آلت اليه حال سعيد وعبد الله . على أنها لم تكن تشك فى وقوعهما فى الفخ

ولما كان الخامس عشر من رمضان وقطام فى بيتها ومعها لبابة سمعتا قرعا بالباب ، فنهضت لبابة فسمعت جعجعة جمل عرفت انه جمل ريحان فأسرعت الى الباب ففتحته ودخل ريحان فقبل يدها وهو ما زال بلباس السفر ودخل توا الى غرفة سيدته . فلما رأته ابتسمت له ابتسامة عوضت عليه كل شقائه . فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه . فقالت : « انى اقرأ آيات البشر على وجهك رغم سواده ، فاقصص على تفصيل ما قمت به من آيات الدهاء والمهارة »

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيته ووجهه : « ركبت الى الفسطاط فوصلت اليها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم ، فسرت توا الى الأمير عمرو بن العاص ، وقصصت عليه خبر القادمين وان فى الفسطاط جماعة من انصار على يجتمعون فى عين شمس كل جمعة . فأمر رئيس شرطته أن يتأهب لمداهمتهم ، وخفت أن يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبد الله ولكنهما وقعا فى الفخ ، فانهما ذهبا الى الجمعية وقبضت الشرطة عليهم جميعا ، ولكننى لم أر سعيدا فى جملة الأسرى »

فابتدرته قطام قائلة : « هل قبضوا على كثير من الأنصار ؟ »

قال : « قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم »

قالت : « وسعيد ؟ »

قال : « لم أره ، واظنه تأخر عن الاجتماع فلم يشهده فنجا بنفسه »

قالت : « وماذا فعلوا بالأسرى ؟ »

قال : « ساقوهم الى النيل واماتوهم غرقا فى الليلة التى قبضوا عليهم فيها »

فأشرق وجه قطام ، ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تلتذ بالتأمل فى ملامحها . فلما راتها انقبضت همت بها وقالت : « ما بالك ، ما الذى كدرك ؟ »

قالت : « ان سعيدا ما زال حيا فأخاف أن يعرقل مساعينا »

قالت لبابة : « لا خوف منه لأنه كما تعلمين سلس القياد تنطلى عليه الحيلة بسهولة . وأما عبد الله رفيقه فقد رايت فيه دهاء ونكرا فالحمد لله على نجاتنا منه »

قالت : « صدقت ولكن سر المؤامرة عند سعيد فأخاف ان يجىء ويطلع عليا عليها فيحتاط لنفسه فيذهب سعينا هباء منثورا »

فأطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت : « هل عرفت الرجل المتآمر على قتل على ؟ »

قال : « علمت انه من بنى مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم »

فبغتت لبابة وصاحت : « ابن ملجم . . ؟ لقد هان الأمر »

قالت قطام : « وهل تعرفينه ؟ »

قالت : « أعرفه جيدا ، وهو جرىء لا يصلح لمثل هذا العمل أحد سواه، فاذا كان هو الرجل فقد نلنا المرام فانه مغرم بالحسان ويتفانى فى سبيل مرضاتهن » . ثم أدنت فمها من أذن قطام وقالت : « لا شك أنه اذا رآك وقع فى هواك» . ثم التفتت قطام الى ريحان وقالت : «هل رأيته قبل مجيئك؟ »

قال : « لا ولكننى سمعت أنه قدم الكوفة يوم وصولى الى الفسطاط . وقد كنت اظنه زاركم لأن حزبنا فى الفسطاط يعلمون كرهنا لعلى ، وسعينا فى اخراج الأمر من يده »

فقالت : « بالله سر الى عشيرتى وابحث عن الرجل وائتنى به ، وحاذر ان يدرك أنك قادم من قبلى »

وخرج ريحان فتبعته لبابة الى حديقة البيت فوقفت به فى ظل نخلة وهمست فى أذنه قائلة : « اذا لقيت الرجل فقل له ان خالتك لبابة هنا وهى تريد أن تراك لأمر ذى شأن ، واستعجله واذكر له انى مقيمة بمنزل سيدتك قطام ، واحتل فى حديثك لتفهمه ماعليه سيدتك من الحسن والجمال وانى قد امهد له للزواج بها . وأنت فطن لبق تحسن تصريف الأمور » . فهرول ريحان ذاهبا

لبابة وابن ملجم

عادت لبابة الى قطام مسرورة مبتسمة تقول : « لا ريب أننا فزنا بمرامنا، وقلبى يحدثنى بأن عليا سيقتل ويشفى غليلنا منه على أهون سبيل »

أما قطام فظلت صامتة مقطبة الحاجبين كأنها تفكر فى أمر ذى بال. فسألتها لبابة : « ما بالك يا قطام ما الذى حدث فأوجب هذا الاهتمام ؟ »

قالت : « انى خائفة يا خالة »

قالت : « ما الذى يخيفك ؟ »

قالت : « انى خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليه فى الفسطاط ، ولا يبعد أنه عرف اسم ابن ملجم والميعاد المضروب لتنفيذ المؤامرة ، فيأتى بالخبر الى على ، وتذهب مساعينا وجهدنا عبثا »

فقالت لبابة : « وما الرأى يا بنية ؟ »

فقالت : « لا بد لنا من تدبير الأمر بالحكمة وتدارك الأمر قبل وقوعه »

قالت : « فما الرأى ؟ »

قالت : « أرى أن نسعى فى منعه من الذهاب الى على . فقد يتراءى له أن يسير اليه حال وصوله الى الكوفة »

قالت : « هذا سهل فاننا نبعث ريحان لينتظره فى مكان خارج الكوفة لا بد له من المرور فيه ، فاما أن يؤخره عن دخول الكوفة واما أن يدعوه الينا بحجة اشتياقك الشديد اليه ! ولا أشك انه اذا سمع بشوقك نسى كل شىء وطار اليك . ومتى جاءنا استبقيناه اما طائعا أو مكرها . ما قولك ؟ »

قالت : « أرى رأيك ، ولكننا الآن فى الخامس عشر من رمضان ولم يبق الا يوم واحد على الموعد المضروب ، فلا بد من المبادرة بارسال من يوقفه خارج الكوفة او يستقدمه الينا ، وريحان خرج فى مهمة الى أهلى وقد يبطىء »

قالت لبابة : « دعى هذا الى . ها أنذا ذاهبة فى أثر ريحان فأبعثه الى خارج الكوفة ، وأبحث عن ابن ملجم بنفسى وذلك سهل على لأنى أعرفه » .

قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تعدو عدو الشباب

وخلت قطام الى نفسها وتأملت ما هى فيه من الصعاب وراجعت فى مخيلتها ما دبرته من الحيل فى سبيل قتل الامام على ، فرأت أنها أحسنت

بارسال ريحان ، فانه اذا نجح فى تأخير سعيد ، ونجحت لبابة فى استقدام ابن ملجم ، وفازت هى باغرائه وتشجيعه ، نالت بغيتها وانتقمت لابيها وأخيها . ولما تصورت وقوع ذلك ارتاحت نفسها ، وهون عليها حبها للانتقام وما جبلت عليه من المكر ، تأنيب الضمير على جريمتها . ثم اعملت ذهنها فوجدت أنه ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركه . وذلك ان سعيدا قد لا يلتقى بريحان لاختلاف فى الطريق أو ربما التقى به ولم يصغ الى قوله وقصد فورا الى الامام على فأطلعه على سر المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت ونهضت وجعلت تمشى فى غرفتها ذهابا وايابا وتخرج منها الى الغرفة الاخرى وهى تترقب عودة لبابة ليتداولا فى الأمر معا وندمت على ارسالها قبل أن تفطن لهذا الأمر

وزاد قلقها فخرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الظلال واتفق وقوع شهر رمضان فى تلك السنة (٤٠ هـ) فى ابان الشتاء لأنه يبدأ فى العاشر من يناير وكان اليوم صحوا يحسن الخروج فيه الى الخلاء فى ساعة الظهر للاستدفاء باشعة الشمس. فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذى يلى الطريق الى ما يلى البحيرة وهى لا تكترث لما حولها من صرير أو تغريد أو نقيق فقد انصرفت الى ادراك غرضها

قضت فى الحديقة ساعة وحدها حتى ملت الشمس وحرارتها وهمت بان تدخل المنزل ، وفيما هى عائدة سمعت أناسا يتكلمون عن بعد ، فوقفت على أرومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت فرأت شبحين لم تلبث أن عرفت انهما لبابة وعبد الرحمن بن ملجم . فانصرفت الى اتقان الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبد الرحمن وتشير اليها باصبعها . وعمدت الى النقاب فارسلته على راسها وجلست على وسادة تعودت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء . ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة ، وما لبثت أن سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها . وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس

فقالت : « لا أجلس قبل أن أدعو رفيقا لى صحبته لزيارتك »

فقالت : « أهلا بك وبرفاقك اجمعين . فليدخل »

فصاحت لبابة للحال : « أدخل يا عبد الرحمن »

وما أتمت كلامها حتى وقف فى الباب رجل طويل القامة نحيف البدن ، خفيف اللحية أشمطها ، براق العينين يكاد الشرر يتطاير منهما ، وعليه

العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواتىء وجهه ، وبخاصة انفه فقد كان شديد الاحرار . فخلع عبد الرحمن نعله خارج الباب وحيى ودخل . فردت قطام التحية وهى تهم بالوقوف واشارت اليه ان يجلس ، فجلس الأربعاء مستعرضا سيفه على فخذيه ، فبدأته قطام بالكلام قائلة : « الى من ينتسب ضيفنا ؟ »

قال : « الى بنى مراد »

قالت : « والنعم والبركة »

فقالت لبابة : « انه عبد الرحمن بن ملجم ، من القراء المشهورين ، قرأ على معاذ بن جبل . ولعلك سمعت به »

قالت : « أنت تعلمين حالى يا خالة ، بل أنت أدرى منى بما هو شغلى الشاغل من الأحزان والمصائب ، فلم يبق لى عقل اذكر به شيئا غير مقتل اخي وابى . والسعى فى الانتقام من أهل العدوان ».. قالت ذلك واجهشت بالبكاء

وكان عبد الرحمن ينظر اليها من طرف خفى ، فافتتن بها ايما افتتان ، وكان قد سمع بجمالها فود أن يحوزها . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئا مما عرفوه عن عزمه ، ولكنها قالت له : « علمت بمجيئك الكوفة ، واعلم انك تحب الحسان ، وعندى واحدة منهن ليس أجمل منها فى العراق » . فجا ولما رآها تحقق ما سمعه فشغف بها ، ومن عجيب امر هذا الرجل انه م عظم ما ندب نفسه له من قتل امير المؤمنين وقرب اليوم الموقوت لم يشغلا ذلك عن مغازلة الحسان. فلما سمع كلام قطام وراى بكاءها قال : « وما الذى يحزن مولاتى ؟ الا استطيع تفريج كربتها ؟ »

فقالت لبابة : « لا يخفى عليك ما اصابها على اثر وقعة النهروان ، فقد قتل فيها ابوها واخوها رحمهما الله ، وهى لا تفتأ تذكر تلك المصيبة وذلك اليوم وتبكى ذينك الفقيدين ، ولكننى اريد أن اشغلها عن هذه الأحزان بكفء لها »

ففهم عبد الرحمن تلميحها فقال : « انى والله اكون اسعد الناس حظا اذا اذا تم لى ذلك الذى أتمناه »

فتجاهلت قطام وقالت : « وما الذى تتمناه يا سيدى ؟ »

قال : « لقد جئتك خاطبا وانت فى أحزانك عساى ان استطيع تفريجها، فاطلبى منى ما تشائين مما تقر به عيناك »

فتنهدت قطام ثم قالت : « انى لأعجب من تسرعك فى الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن »

فقطعت لبابة كلامها قائلة : « نعم انكما لم تلتقيا قبل الآن . ولكن لبابة

تعرفكما جيدا ، واذا اذنت مولاتى بكلمة فاقول انكما انما خلقتما لتعيشا معا»
فسكتت قطام فقال ابن ملجم : « ومع ذلك فاطلبى ما تشائين يكن لك »
فظلت قطام ساكتة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماما للحيلة. ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها : « انى أستحيى أن أقول » . فقالت لبابة : « انا اقول . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبدا وقينة »
ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام : « لا . لا يرضينى ذلك ولا مطمع لى فى المال كما تعلمين »
فقال عبد الرحمن : « اطلبى ما تريدين »
فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحه عليها من الطلب ثم قالت : « أن مهرى هو قتل على بن أبى طالب قاتل أبى واخى »
فابتسم عبد الرحمن ، ونظر اليها ويده على قبضة سيفه وقال : « ان ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك . ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن ابى طالب والعبد والقينة . فان مثلك لا يعز فى سبيل نيلها مهر . واعلمى انى انما جئت الكوفة لهذه الغاية . أنظرى الى هذا السيف (وجرده فلمع نصله لمعانا شديدا) انى اشتريته بالف وسممته بالف لاقتل عليا بن ابى طالب »
فابتسمت وقالت : « ولكننى أرجوان يكون ذلكعاجلا لئلاتفوت الفرصة »
فقال : « ان موعدنا قريب لم يبق منه الا يوم وليلة سأقتله فى صباح يوم ١٧ من هذا الشهر اى بعد غد ، فاطمئنى »
قالت : « وكيف عينت اليوم والساعة ، الا يستحسن أن يكون ذلك غدا »
قال : « ان لذلك سببا ساذكره لك فيما بعد ، فاننى مقيد بهذا الموعد فى انفاذ مهمتى »
فسكتت قطام وهى تتجاهل ما علمته من امر المؤامرة
وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان ، ولا بد من زاد يتناوله الضيف ، فدعت عبدها فى أثناء قدومها فجاء وأعد لهم طعاما تناولوه
وما صدقت قطام انخلت بلبابةلحظة حتى أشارت اليها انها تحب الانفراد بها لأمر ذى بال ، فاحتالت هذه على عبد الرحمن حتى استأذن فى الخروج الى السوق فى حاجة له ، وخلت قطام بلبابة

□

وكانت لبابة قد أدركت ريحان في الطريق قبل عثوره على عبد الرحمن ، فأمرته أن يسرع ليلقى سعيدا خارج الكوفة وزودته بنصائحها لتضمن نجاح مهمته . فسار أولا الى ساحة كبيرة فى وسط الكوفة تجتمع فيها القوافل . من كل حدب وصوب . ولابد للقادم الى الكوفة من المرور بها أو النزول فيها

وسمع عن بعد هدير الجمال وصهيل الخيل فلما وصل راى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس فى هرج بين راكب وراجل ، وراى الاحمال ملقاة هنا وهناك ، فجعل يتفرس فى الوجوه لعله يرى سعيدا او احدا من خدمه ، فلم ير احدا . وذهب الى بيت سعيد يسأل عنه فقيل له انه لم يأت بعد فخرج الى الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعله يري هجانا او فارسا . فمشى ساعتين ولم ير احدا حتى وصل الى شجرة كبيرة يستظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولابد لمن كان قادما من الشام او مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناه تحدقان فى الافق وذهنه يعمل لفتق حيلة تنطلى على سعيد فيستبقيه او يسير به الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يات احد ، وكان القمر بدرا فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه ترقبان

وقضى اوائل الليل على هذه الحال ، وكلما راى شبحا ظنه سعيدا ، فاشتد به البزد وهو يصبر ويتجلد . وحدثته نفسه ان يرجع فخاف ان يجيء سعيد فى غيابه فيذهب سعيه هباء منثورا ، فالتف بثوبه حتى اذا انتصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقو على سلطان النوم فأغمضت عيناه ، ولكنه لم ينم طويلا حتى استيقظ بغتة اسفا على رقاده خشية ان يكون سعيدا قد مر ولم يره . فوقف يفكر فى الامر ، حتى دنا الصباح فلم يات احد فخيل اليه ان سعيدا مر فى أثناء نومه ، فعاد الى الكوفة باسرع من لمح البصر يبحث فى ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انه لم يات بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها او حولها كانه على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لايتذمر ولايتضجر حتى غابت الشمس وطلع القمر . فقال فى نفسه : « لم يبق الا هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمة حاجة الى بقائى اذ يكون قد نفذ السهم وقتل على » . وتمنى الا يأتى سعيد فيتخلص هو من الاحتيال عليه لأخذه الى قطام ، وقد قرب اجل الموعد المضروب

ولما دنا العشاء راى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشا . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فاذا هما سعيد وبلال عبد خولة ، وكانا ملثمين فعرف سعيدا من قيافته واما بلال فلم يعرفه

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق فى قلق على الامام ، فما كاد يطل على الكوفة حتى قرر أن يسير توا الى منزل علي . فلما وصل الى الشجرة ترجل وترجل عبده ليستريحا قليلا ثم يستأنفان المسير . فاستقبله ريحان وسلم عليه ، فلما رآه سعيد استأنس به ورد السلام وقال له : « ما الذى جاء بك يا ريحان ؟ »

قال : « ان سيدتى مضطربة البال لطول غيابك » . واشار اليه ان يدنو

منه ليبث اليه ما اؤتمن عليه من السر . فدنا منه على انفراد وشـــغل بلال بأمر الجملين

فقال ريحان : « ان سيدتى قطام تقرئك السلام وتذكرلك انك أطلت الغيبة عليها انت وسيدى عبد الله »

فتنهد سعيد وقال : « لاتذكر عبـــد الله فقد تركناه فى مصر » . قال ذلك وهو لا يريد أن يطارح العبد الحديث فى مثل هذه الشؤون أنفة وترفعا ، فسكت ريحان وهو يعلم ان عبـــد الله اغرق فى جملة من اغرقهم عمرو بن العـــاص فى النيل ، ثم قال : « وماذا اقول الآن لسيدتى اقادم أنت للمبيت عندنا الليلة ، فانها قد أعدت لك كل شىء »

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق الى قطـــام وبواعث العجلة الى على ، فرأى أن ميعاد القتـــل قد دنا فاذا بات الليلة فى منزل قطـــام فانه قد يتمتع برؤيتها ويشنف سماعه بحلو حديثها ولـــكنه يصبح فى الغد وقد قتل على ، لأن المجرم لايتأخر عن فعلته الى ما بعد صباح السابع عشر من الشهر. ثم بدا له أن يزورها للتو زيارة قصيرة ثم ينطلق من بعدها الى على ، والتفت الى بلال فرآه مهتما باعداد العشاء فناداه باسمه فأقبل . فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبه فى صدره ، وتفرس فيه فعرف انه عبد خولة ، وكان قد لقيه فى الفسطاط وباح له بمهمته ولم يكن يخطر له يومئذ انه سيأتى مع سعيد . فارتبك فى أمره وحاول اخفاء نفســه لئلا يراه بلال فيعرفه . أما بلال فلما دعاه سعيد أسرع الى ما بين يديه فقال سعيـــد : « الا ترى أن نسير توا الى الكوفة ؟ » قال بلال : « الامر لمولاى ولكننى أعددت لك الطعام . الا ترى أن تتناول منه شيئا ونستريح هنيهة ثم نذهب الى حيث نشاء »

قال : « ولكن بعض أهلى بعثوا يدعوننى الى العشاء »

والتفت بلال الى ناحية وقوف ريحان فرآه قد تقهقر الى جذع الشجرة يستتر بظلها فلم يره ، وكان سعيد فى أثناء الطريق قد استأنس ببلال واطلعه على خبر المؤامرة . فاغتنم بلال فرصة انفراده به وقال : « الا ترى يا مولاى ان نتم مهمتنا التى جئنا لها من الفسطاط قبل كل شىء فانى اخاف أن يكون ذهابنا الى اهلك سببا فى التأخير ، وهم ربما لايعلمون الغرض الذى يدعونا الى الاسراع ، وربما حدث لك بعد العشاء ما يعيقك . أما اذا انفذنا مهمتنا واطلعنا الامام على ماخبأه له أهل البغى فاننا نمضى بعدئذ حيث تشاء ، هذا ما أراه والامر لك . على انى قد أعددت لك الطعـــام الآن فاذا شئت أكلت ثم فعلت ما يتراءى لك »

فارتاح سعيد لهذا الرأى ، ولكنه أراد ان يخبر بلالا باطلاع ريحان على سر الامر فقال له : « ولا اخفى عليك ان هذا الهمام (وأشار الى ريحان) من حملة الساعين فيما نحن فيه »

فقـــال بلال : « اذن فهو يعذرنا اذا رأى اننا نؤثر أن نذهب أولا الى منزل الإمام . هلم الآن الى طعامك وأنا اهيىء الجملـين معه ثم نذهب جميعـا بعد انتهائك من الطعام »

سار بلال الى حيث جلس ريحان وراء الشجرة . وكان هـذا يحاول أن يختبىء ، وحدثته نفسه بأن يرجع الى الكوفة لئلا يراه بلال فينكشف امره . ولكنه ما لبث ان رأى بلالا قد دنا منه وكلمه فأجابه بصـوت منخفض وهو يتشاغل باصلاح نعليه وشملته لايرفع نظره اليه. فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليه ، قال : « تعال يا اخى نقعد ريثما يتناول مولاى طعامه ثم نسير معا »

فسكت ريحان ولم يجب ، وتظاهر بأنه اضاع عصاه وأخذ فى البحث عنها وبلال يتبعه ويعجب لما يبدو منه . فلمـا بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنته فتذكر بلال انه يعرفه ، ثم فطن الى انه هو الذى أسر اليه خبر مهمته فى الفسـطاط . فأدرك ان فى الامر خديعة ، ولا سـيما لما رآه يحاول اخفـاء وجهه . فتقدم اليه وامسكه بيده وقال : « تعال ياصاحبى نقعد هنا الى أن ينهض مولانا فنسير معا » . فجذب ريحان يده من يده مغضبا ، فتبعه بلال وهو يقول : « يظهر أنك لم تعرفنى يا صاح ألا تذكر أننا التقينا فى الفسطاط»

فصاح به ريحان : « واى فسطاط ؟. انى لا اعرف الفسطاط ولا اعرفك؛ وليتنى لم أعرفك فقد أضعت عصاى بسببك »

فسمع سعيد صياحه وكان قد جلس الى الطعام ، فنظر اليهما من بعيد ، فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلا: « لاتغضب يا ريحان ان بلالا على دعوتنا »

فسكت ريحان ، واضطر الى أن يجىء لئلا يثير الشبهة ، ولكنه بقى مصرا على انه لم يذهب الى مصر

فلما دنا من سعيد له : « ما بالك تخاصم بلالا ؟ »

قال : « انى لا اخاصمه ، ولـكننى أضعت عصـاى ، وفيما أنا أبحث عنها جاءنى بحديث لا أعرف له أصلا »

قال سعيد : « وما ذلك يا بلال ؟ وما الذى قلته له ؟ »

قال : « لم أقل له شيئا ، ولكننى تذكرت انى رأيته فى الفسطاط منذ بضعة عشر يوما ، فأنكر وتنصل »

فقال سعيد : « يحق له أن ينكر عليك ذلك لأنه لم يبرح الكوفة منذ اشهر»

فأعاد بلال النظر الى ريحان وتفرس فى وجهه وقال : « بل أنا على يقين مما

اقول ، وقد لقيته هناك غير مرة وقد يعذر على انكاره ، لأن وجوده هناك عاد بشر العواقب على سيدى ورفيقه »

فبغت سعيد وكانت اللقمة فى فمه فلم يعد يستطيع ازدرادها ، وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال : « ماذا تقول يابلال ؟ اظنك تخلط فى القول . ان ريحان عبد قطام بنت شحنة ، وقد تركته هنا يوم سفرى وأنا واثق بأنه لم يبرح الكوفة ، فلعلك رايت فى الفسطاط عبدا آخر يشبهه »

فلما سمع ريحان اعتذار سعيد عنه اطمأن وقال بهدوء : « يلوح لى انه اخطأ ، لأن البشر يتشابهون ، ولكنه سامحه الله جاءنى مغضبا وانا ابحث عن عصاى فاغاظنى فأسمعته كلاما مؤلما وها أنذا الآن اطلب منه غفران ما فرط منى » . والتفت الى بلال وابتسم حتى يجيز عليه حيلته

اما بلال فكان فى اثناء ذلك يتفرس فى ريحان فلا يزداد الا اعتقادا بأنه هو الرجل الذى قابله فى الفسطاط وحدث أن نادته سيدته خولة وهو يكلمه فذهب اليها وقص عليها خبره كما مر ، فلما آنس منه ذلك اللين ظل يتفرس فيه وهو صامت . فلما أتم ريحان كلامه قال له بلال : « ربما كنت مخطئا فى ظنى ولكنى اسألك سؤالا أرجو أن تجيبنى عليه »

قال : « قل ما بدالك »

قال : « الا تذكر انك رأيت وجهى ؟ »

فتفرس فيه ريحان وهو يظنه يقول ذلك بسذاجة ، ثم قال : « لا يا أخى ، لا اذكر انى رأيتك قبل الآن »

فقال : « يا للعجب ولكننى واثق بانى لقيتك وكلمتك ، فرايت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك زرت الفسطاط قبل اليوم »

قال : « نعم انى صرت اليها منذ بضعة أعوام »

فضحك بلال وقال : « ولكنك قلت الآن انك لاتعرفها »

فارتبك ريحان وعمد الى المغالطة فقال : « دعنا من هذه الاوهام ولاتشغلنا بما لاطائل تحته »

وكان سعيد فى أثناء ذلك يسمع كلامهما مصدقا ما يسمع

أما بلال فخاف أن يؤدى سكوته الى ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان : « اذا كان الحال كما تقول فعليك أن تساعدنا فى انفاذ المهمة التى جئنا من أجلها . دعنا نذهب الى منزل الامام الآن »

قال : « انى اشد رغبة منك فى هذا ، ولكن الليل طويل ، ويحسن ان يذهب مولاى معى الى سيدتى قطام لتراه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء »

قال : « فليذهب هو معك واذهب انا الى منزل الامام أقوم مقامه »

فضاق ريحان به ذرعا وظهرت البغتة على وجهه فلم ير له مخرجا من المأزق

غير التظاهر بالغضب فقال : « ولماذا هذا اللف والدوران ؟ هل بلغ بك الامر الى اساءة الظن بنا ونحن أولى منك بهذا الامر ؟ »

فتحقق بلال حينئذ أن ظنه فى محله فقال : « نعم انى أسيء الظن وبسيدتك ايضا »

فخاف ريحان أن يفضى الامر الى افتضـــاح حاله فتظاهر بالغضب وقال لسعيد : « انى لأعجب من قحة هذا الاحمق ومن سكوت مولاى عليه ، وها انذا اتركك فافعلا ما تشاءان »

قال ذلك واخذ يعدو نحو الكوفة ، وظل سعيـــد وبلال صامتين كان على راسيهما الطير

▭

مضى ريحان وهما ينظران اليه لايفوهان بكلمة . فلما توارى قال سعيد : « ما الذى أراه يا بلال ؟ انى احسب نفسى فى حلم ؟ ما الذى تقوله عن هـــذا العبد ، أوائق انت انك رايته فى الفسطاط ؟ »

قال : « نعم يامولاى ، وقد زادنى ايمانا بذلك تناقض أقواله ، وغضبه بعد ما اقترحته عليك »

قال سعيد : « ما الذى يدعوه الى انكار ذهابه الى الفسطاط ؟ »

قال : « يدعوه الى هذا ما ارتكبه من الخيـــانة هناك . تبـــا له من نذل يا ليتنى قضيت عليه ، قبل فراره . انه وشى بكمارالى عمرو بن العاص »

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن عينيه ، وتذكر ما قصـــته عليه خولة من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بهما الى ابن العاص . وانه استغرب يومئذ أن يصل خبر قدومهما الى الفسطاط وهما انما قدما اليها سرا لا يعلم بهما أحد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فوضح له ان ريحان لايأتى الفسطاط الا بايعاز من سيدته ، وتذكر ما كان يراه فى ابن عمه عبد الله من الشك فى قول قطام ، فندم على استسلامه لها وعض على سبابته ، وظل واقفا لايبدى حراكا ، وبلال واقف بين يديه صامتـــا . ثم التفت الى بلال وقال : « الا بارك الله فى خولة ، انها والله ملاك بعثه الله من السماء لكشف تلك الخديعة . ولكن وا أسفاه ، فقـــد نفذت حيلة قطـــام فى عبد الله فمات غريقـــا . على انها لن تنفـــذ فى الامام على بعد أن افتضح أمرها قبل دنو الاجل المضروب والحمد لله » . ثم صمت وتذكر حبه القديم لقطام وما أكنه لها من الاخلاص ، وما بذلته هى من الخداع ، فعظم الامر عليه وأمست عواطفه تتراوح بين ما انغرس فى قلبه من الحب وبين ما انكشف له من المكر السيء ، فلم يملك نفسه عن البكاء . وخجل ان يذرف الدمع أمام بلال ، فأومأ اليه أن يهيىء الجمـــال ، وادار وجهه الى

الخلاء ومشى واطلق لنفسه عنان البكاء . ولاسيما وقد تمثل له ما اصاب ابن عمه عبد الله من البلاء بسببه ، فجعل يندبه ويندب سوء حظه ويقول :

« تبا لك ياقطام . اصحيح انك بعثت عبدك للوشـــاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا ؟ اين عهودك واين وعودك ؟ . اين ما سمعته منك من التوبة عن قتل الامام علي ؟ . وا اسفاه عليك يا اخى عبد الله ، انك ذهبت ضحيـــة غفلتى ودهاء هذه المراة . آه ياقطام ! . . هل يخلق الله قلوبا تقسو الى هذا الحد ؟ (قتـــل الانسان ما أكفره) . أتسمحين بقتـــل محب تفانى فى سبيل هواك ؟ وتقتلين بريئا حملته غيرته على السعى فى انقاذ امير المؤمنين ؟ . وتسعين بعد ذلك الى قتل امير المؤمنين وانت تنظرين . .آه لو كان امامى متسع من الوقت لاسرعت الى الانتقام منك قبل الذهاب الى الامام »

ثم وقف فجأة وانتبـــه كأنه أفاق من رقاد ، ونظر الى ما حوله فاذا هو فى ليلة مقمرة صفا هواؤها ورق نسيمها ، فجعل يعيـــد فى ذهنه ما مر به من الاهوال ، وتذكر حبه قطام فغلب عليه طيب عنصره فقال فى نفســـه : « لعل قطام بريئـــة ، وربما كان ريحان صادقا وبلال مخطئـــا » . فسرى عنه بعض الشىء ، ثم ادرك انه انما يخادع نفســه فى التماس العذر لها ، وقد تثبت عليها الجريمة . ثم التفت فرأى بلالا قد اعد الجمـــلين وهم بالقدوم اليه فمســـح دموعه وتقدم اليه وهو يقول فى نفســه : « لقد نفذت حيلتها فى اخى عبد الله ، ولكنها لن تنفذ فى الامام على . ها أنذا ذاهب الآن الى بيته وساستعين به على قتلها وقتل العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير »

وركب جمله ، وركب بلال فى اثره ، وسارا يقصدان منزل الامام على

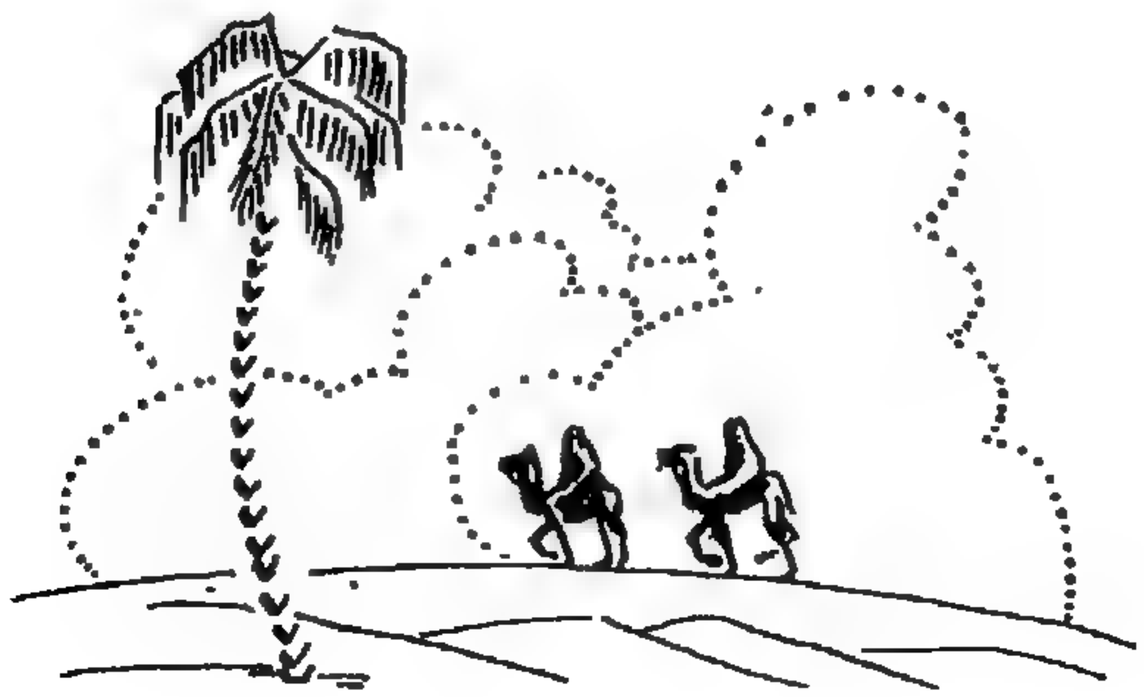

مقتل الأمام على واحراق قاتله

كان منزل الامام على بجانب المسجد ، وبينهما باب السدة يدخل منه الامام للصلاة . وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من الولاة واهل الامصار . وبجانب المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لاتبرح غاصة بجماهير الناس من دعاة الامام ، وكلهم متفانون فى نصرته معترفون بامامته لايرون احدا اولى بها منه . وكان اهل العراق وغيرهم قد اجتمعوا تلك السنة على نصرته فبايعه منهم اربعون الفاعلى الموت . ولعله كان ينتظر اتمام صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم ، غير آبه بمثل ما مر به من حيلة « صفين » وغيرها بعد ان راى ماقا ادى اليه ذلك من تأييد سلطان معاوية

وكان الداخل الى مجلس الامام حينذاك يرى رؤساء القبائل يترددون عليه ولا حديث لهم الا ماكان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونه من النصر ويرجونه من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين الى الخلافة من غير اهل البيت

ذلك كان شأن الكوفة فى شهر الصيام المبارك . اما على فلم يكن يشغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل ، فاذا دنت الساعة واذن المؤذنون تهافت الناس فى صحن المسجد الى سماع ماعهدوا فى كلامه من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمين . فاذا صعد المنبر رايت الناس سكوتا كان على رؤوسهم الطير اعجابا بما يسمعونه من درر الفاظه وبديع حكمه وبليغ آياته ، وهم يعجبون لما قام فى انفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعته ، وبخاصة الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته اسبابا ما انزل الله بها من سلطان

وكان اذا فرغ من صلاة المغرب ذهب الى داره ومعه جماعة من الامراء يتقدمهم أولاده وسائر أهله ، فيجلسون الى الاسمطة للافطار، والقراء يتلون القرآن فى جوانب الدار ، والكل يسبحون ويهللون حتى يخيل اليك انهم فى يوم الحساب ، وما فيهم من يخاف عقابا لما يعتقدونه من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسوا للاحاديث اقلهم كلاما . وربما مكث ساعة أو بضع ساعات لاينبس ببنت شفة كأنه يفكر فى امر ذى بال ، وربما كان تفكيره فيما يخشاه من سفك الدماء اذا حمل بزجاله على

الشام ، ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها ان تذهب ضياعا ولا يضن بها اصحابها فى سبل نصرته

كان ذلك شأنه في أواسط رمضان ، وعلى الاخص فى ليلة السابع عشر منه ، وهى الليلة التى بات فيها ابن ملجم يترقب انبلاج الصبح ليقوم بفعلته للفتك بابن أبى طالب . وفى تلك الليلة أسرع سعيد وعبده الى دار الامام لينبئاه بعزم ذلك الرجل

وما ظنك بابن ملجم فى تلك الليلة . . هل تظنه بات رابط الجاش مطمئن القلب ؟ . وهل عرف الكرى جفناه ؟ . لا نخاله قضى ليلته الا قلقا مضطربا لهول ماعول عليه من الامر الجسيم . واى شيء أفظع من ان يسفك دما بريئا ، دم رجل جمع الى كرامة الخلافة شرف النسب ، وأحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين فى ذلك العهد ؟ . أليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره ؟ . أليس هو ذلك العالم التقى العادل المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نخال ابن ملجم قضى ليلته الا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليله . وربما حدثته نفسه بالرجوع عن عزمه فيغلب عليه عهده لرفقائه ووعده لخطيبته قطام بنت شجنة ، ولا سيما بعد أن أشركت معه فى الجرم ابن عم لها يقال له « وردان » حرضته على الاخذ بناصره . ولقى هو رجلا من « أشجع » يقال له « شبيب » استحثه على ركوب ذلك المركب الخشن معه . فتواعد الثلاثة على العمل معا فى فجر الغد . فهل تظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغى لنداء ضميره ان كان له ضمير ؟

على انك لو سبرت غور قلبه فى تلك الليلة وهو يتقلب على فراشه وسيفه المسموم الى جنبه ، لرايته يناجى نفسه ويدفع تبكيت ضميره بحجة انه عمد الى ذلك دفعا لفتنة كان سببها تنازع على ومعاوية وعمرو على السلطة ، والفتنة شر من القتل

وكأن نفس الامام على حدثته فى هذا الاوان بخطر يتوقعه على حياته وكان مذ أهل رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر ، لايزيد على ثلاث لقمات ، ثم يقول : « أحب أن يأتينى أمر الله وانا خميص » . وأما فى تلك الليلة فانهم تعشوا جميعا فى منزل الامام وهو جالس لايأكل الا قليلا وأولاده بين يديه ينظرون اليه ويعجبون لحاله

وكان حاجبه « قنبر » رجلا كهلا من أهل الحبشة اذا نام الامام بات هو عند بابه ، وكان فى تلك الليلة أشد الجميع قلقا لم يتناول الافطار ولا هدا له بال . أكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان الى

الفضاء يتوقع قدوم قادم وهو لايكلم احدا ولا انتبه احد لحاله ، ولو سأله احدهم عن علة قلقه لباح له بما اطلع عليه من الاسرار التى ظن انه كشفها وهم يبحثون عنها عبثا

وبعد صلاة العشاء ارفض المجلس ، فذهب كل الى منزله وناموا جميعا الا « قنبر » فانه لبث ساهرا وقد أخذ الاضطراب والقلق منه مأخذا عظيما . وما سهر للحراسة وهو يعلم ان الامام لايريد حرسا يحرسه . ولكنه جلس يفكر فى امر اذهب رقاده والقاه فى حيرة

أما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة واسرعا الى دار الامام على وكان القمر بدرا او حوالى البدر ، وقد تكبد السماء فأرسل أشعته على ابنية الكوفة ، وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد فى ذلك الفصل . فلما دخلا الكوفة رأياها ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر . وقد نام الناس وهم يتوقعون أذان السحر لينهضوا للسحور

سار سعيد وهو يستحث جمله وقلبه يرقص طربا لنجاح مهمته لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت . فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال : « خذ الجمل وسر به الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك »

فعمل بما أمره به ، ومشى سعيد وركبتاه تصطكان من الاضطراب ، حتى اقبل على دار الامام فرأى السكون مخيما عليها ، فوقف يفكر كيف يدخل الدار واهلها نيام ، فترددخشية أن يظن به السوء لقدومه فى ذلك الوقت، ولم يكن قد دخل الدار من قبل ولا لقى الامام عليا لقاء أهل الولاء . ولكنه لم ير بدا من الاقدام فمشى مترددا حتى دنا من باب الدار فرأى شبحا جالسا لم يعرفه ، ولكنه سر به لعلمه انه لايبعد أن يكون من رجال على فيسهل رسالته ، على انه لم يكد يقبل عليه حتى وقف الشبح بغتة واعترضه سائلا : « من القادم ؟ »

فقال سعيد وهو يتلجلج : « انى رسول الى الامام على ، ومن انت ؟ »

قال : « أنا قنبر حاجب الامام . ومن انت ؟ »

قال : « انى سعيد الاموى ، أريد مقابلة الامام على »

فصاح قنبر قائلا : « انت سعيد ؟ تعال معى »

فسر سعيد لاجابة طلبه توا ، ومشى فى أثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتوجها الى حجرة فيها مصباح ، فدخل قنبر أولا وايقظ رجلين نائمين هناك ، فلم يكد يدخل الحجرة حتى اطبق عليه الرجلان وقيدا يديه ورجليه

وهو واقف لايبدى حراكا من هول المفاجأة ، ولمـا عاد اليه وعيه قال لقنبر : « ماذا تصنعون بى ، وما هذه الوقاحة ؟ اين الامام على ؟ »

فأجابه قائلا : « لقد خاب فألك أيها الوغد اللئيم ، انك لن ترى عليـا حتى ترى الموت قبله »

فكاد سعيد أن يجن ، ولم يدرك الباعث على عملهم فصـاح بهم : « ما لكم تفعلون بى هكذا وقد جئتكم فى رسالة لانقذ الامام عليا من القتل »

قال قنبر : « اخسأ ولا تكثر الكلام ، انك أموى وما أتيت الا لتغتال الامام، ولكن دون وصولك اليه خرط القتاد »

فقال : « وكيف أريد به شرا ، وقد جئت لانقاذه من القتل ؟ »

فأمسك قنبر بتلابيبه ويداه ترتعدان اضطرابا وقال له « أتظن حيلتك تنطلى علينا ؟ أما كفى بنى أمية ما فعلوه ، حتى جئتم تقتلون الامام فى عقر داره ؟ »

فبهت سعيد ، وجمد الدم فى عروقه وقال : « ما بالكم تسيئون بى الظن وأنتم لم تروا منى خيرا ولا شرا ، ألا تسمعون قولى ثم ترون رأيكم ؟ »

فقال قنبر : « وماذا تريدنا أن نسمع وانت أموى اخذ عليك العهد لتقتلن الامام على مهرا لفتاة خطبتها »

فذهل سعيد وأراد أن يدفع عن نفسه فرأى قنبر قد اخرج من جيبه رقا دفعه اليه وجذبه بيده الى المصباح وقال له : « اقرأ أليس هذا خطك ؟ »

فلما وقع نظر سعيد على الرق رآه العهد الذى كتبه لقطام يوم خطبها ، فأيقن أن قطام هى التى أرسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع به . ورآها لفرط حيلتها قد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة اخرى فصمت ولم يجب . فاتخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح : « أجب ، قل . أليس هذا خطك ؟ »

فارتبك سعيد فى أمره ولكنه ظل يؤمل أن ينجو اتكالا على النبأ الذى جاء به عن مكيدة ابن ملجم فأجاب : « هب انه خطى ولكننى جئتكم بخبر المكيدة التى كادها بعض الناس للامام . ألا تمهلونى ريثما أخبركم »

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاح قائلا : « وأى مكيدة أعظم من ان تتعهد بقتل الامام . أمكث هنا الليلة ، وسنرى فى أمرك غدا » . قال هذا وأوصد الباب دونه

فلما خلا سعيد الى نفسه فى تلك الحجرة ظن نفسه فى حلم ، وجعل يفكر فى أمره وفى دهاء قطام وكيف أوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها : ولـكنه لم يكترث لما عامله به قنبر ، وصمم على مقابلة الامام فى الصباح الباكر واطلاعه على سر الأمر

واما وصول الصك الى قنبر ، فانما سمعت فيه لبابة المحتالة باشارة قطام بعد ان تداولتا فى اتمام الحيلة مخافة ان يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله اليها ، او ان يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فاخرجت ذلك العهد وغيرت فيه الفاظا رفعت بها الشبهة عنها ، وكلفت لبابة فأتت منزل قنبر فى صباح ذلك اليوم بدعوى انها دلالة تبيع الاقمشة والقت الى قنبر حديثا لفقته بحيث تلبس الشبهة سعيدا فلا يصغى احد الى كلامه . وكان انصار على قد سمعوا اشاعة اعتزام بعض الناس قتل الامام . فلما رأى قنبر الصك وعلم ان صاحبه أموى ربى فى بيت عثمان وقام بنصرته لم يبق عنده شك فى اجرامه ، ولا سيما بعد ان رآه قادما قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليه حبسه الى صباح الغد ليرى الامام رأيه فيه بعد ان يعود من صلاة السحر

أما بلال فانه مكث بالجملين فى ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد . فلما ابطأ عليه قلق ، ولكنه لم يظن سوءا لما يعلمه من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر فى ذلك سمع اذان السحر وكان يعلم ان عليا يخرج فى تلك الساعة للصلاة فهرول الى المسجد فدخله فرأى فيه قبة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف يجيل نظرة لعله يرى سعيدا . فاذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعباءة يخفى تحتها سيفا فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهته أثر السجود فعلم انه ابن ملجم ، فارتعدت فرائصه وحدثته نفسه ان يصيح به ولكنه خاف على نفسه ولم يكن يشك فى ان عليا قد اطلع على سر المؤامرة فلا يلبث أن يدخل المسجد ويامر بالقبض عليه ، ثم رأى ابن ملجم وقد توجه ومعه رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلما من فيها ، وكان فيها قطام بنت شحنة ، ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة وبلال يرقبه ويتوقع سماع الأمر بالقبض عليه حالما يدخل على

وبعد هنيهة ، فتح باب السدة ، ودخل منها الامام على وهو يمشى الهوينى وعمامته على راسه تغطى صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل وفى يده درة (سوط) كان يوقظ بها الناس للصلاة كل صباح ، فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن ابنه خلفه . فلما دخل انصت الناس وبلال ينظر اليه موقنا أنه سينادى من يقبض على ابن ملجم ؛ فاذا به قد وقف ونادى : « ايها الناس الصلاة الصلاة »

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لا يزال واقفا لكن رفيقه (شبيب) تقدم مسرعا وسيفه بيده فضرب به الامام عليا فأصاب عضادة الباب وسقط السيف من يده فأجفل بلال وهم بأن يسرع الى على يخبره بأمر ابن ملجم

فاذا بابن ملجم قد اقبل على على بأسرع من لمح البصر والسيف يبرق فى يده وضربه على جبهته وهو يقول : « الحكم لله يا على وليس لك ولأصحابك »

فصاح على : « فزت ورب الكعبة » . ثم قال : « لا يفوتنكم الرجل »

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة ابن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الارض وقعد على صدره وانتزع السيف منه . واما شبيب فأفلت فى الغلس وخرج من المسجد هاربا

وانفرط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها واذا هى قطام أسرعت وفرت فى غمار الناس . فذهل لما رآه ولكنه أمل الا تكون الضربة قاضية ، ثم تذكر أن سيف ابن ملجم مسموم فيئس من نجاة الامام ، وجعل يتفرس فى الناس لعله يرى سعيدا فلم يقف له على أثر فتقدم فيمن تقدم الى السدة حيث كان على مطروحا فسمعه يقول : « أحضروا الرجل » . فأحضروه اليه

فقال له على : « أى عدو الله . . ألم احسن اليك ؟ ! »

قال : « بلى »

فقال : « فما حملك على هذا ؟ »

قال : « شحذت سيفى هذا أربعين صباحا ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه » !

فقال على : « لا أراك الا مقتولا به ، ولا أراك الا شر خلق الله » . ثم التفت الى من حوله . وقال : « النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وان بقيت رأيت فيه رأيى . يا بنى عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين . ألا لا يقتل الا قاتلى . أنظر يا حسن ان انا مت من ضربتى هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) . . »

قال ذلك وابن ملجم موثق ، وكانت أم كلثوم ابنة على واقفة بجانب أبيها فقالت لابن ملجم : « أى عدو الله لا بأس على أبى والله مخزيك » . فالتفت اليها ابن ملجم وقال : « على من تبكين ؟ والله ان سيفى اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقى منهم أحد »

ثم تقدم جندب بن عبد الله الى على وقال : « ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن »

قال على : « ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »

ولما علم الناس أن سيف ابن ملجم مسموم ايقنوا دنو أجل الامام ، وخافوا الفتنة فيمن يخلفه ، ولكنهم بعد أن سأله جندب بن عبد الله ما سأله عمن يخلفه فأجابه بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم ، لم يسعهم الا تأجيل النظر فى الأمر ، ثم نقلوه الى داره ماشيا وهو يتوكأ على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبينه وكان السم لم يفعل فعله بعد

أما ابن ملجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه وبانت سحنته ، وكان اسمر ابلج فى جبهته أثر السجود ؛ فسـاقوه الى السجن ولو لم يوص أمير المؤمنين بألا يقتلوه الا اذا مات هو من الضربة لقطعوه اربا اربا . ولـكنهم اضطروا امتثالا لأمر الامام الى أن يسوقوه الى السجن ريثما تظهر عاقبة الجرح

أما بلال فسار فى اثر الجمع الى منزل الامام على ، وقد راعه ما رآه من هول تلك الساعة ، ومما زاد فى أسفه وضاعف حزنه ما أصابه من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدته ، لأنه انما كان يود نجاة الامام من تلك المؤامرة اكراما لمولاته خولة ، ولاسيما بعد أن صحب سعيـدا وسمع منه فى اثناء الطريق ما حدثه به جده ابو رحاب عن فضائل الامام على التى يندر اجتماعها فى رجل

على انه كان مع ذلك فى شاغل عما كان فيه الناس من الاضطراب والاهتمام والانهماك بأمر الامام وجرحه بالتفكير فى سعيد وحاله ، وقد عجب لفشله فى مهمته مع علمه انه انما أسرع بعد طول مشقة السفر وسعى فى منتصف الليل لينبىء القوم بالخطر الداهم ، فمشى وهو يتفرس فى الناس واحدا واحدا لعله يرى سعيدا بينهم فلم يقف له على أثر . على أنه ما لبث أن راى الجمع دخلوا المنزل وأدخلوا الامام محمولا الى حجرته ، وتفرق الباقون فى صحن الدار جماعات ، وحديثهم يدور حول الحادث ، وما عسى أن يصيب الاسلام بعده مما لم يكن فى الحسبان ، وما فيهم الا من يقول : « ليتنى أشفى غليلى بضرب عنق ذلك الباغى »

وفيما هو ينظر فى وجوه الناس لعله يرى سعيدا ، اذا بقنبر حاجب الامام على قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهـو يقول : « اقتلونى ايهـا المسلمون ، اقتلونى انى جنيت على أمير المؤمنين »

فنهض الناس والتفوا عليه وهم لا يفقهون حديثه ، فاذا به قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التى كان سعيد مسجونا فيها وفتحها وأخرج سعيدا منها وهو ما زال فى أغلاله

ولم يكن سعيد قد درى بما أصاب الامام عليا . فلما أخرجه قنبر على تلك الصورة وراى الجمع متكاثفا ظنهم يريدون به سوءا . فقال : « أرونى الامام عليا فأطلعه على دسيسـة دبرها له أهل البغى ولا تظنوا بى سوءا »

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال : « لقد نفذ السهم يا سعيد ، انهم فتكوا بأمير المؤمنين »

فصاح سعيد : « ومن فتك به ؟ »

قال : « ابن ملجم ، ضربه ضربة قاتلة قتله الله »

فصاح سعيد : « ويلاه ، واحسرتاه ، كيف يقتله وقد قطعت البرارى والقفار سعيا فى تلافى المصاب ؟. الم أقل لك ذلك يا قنبر ؟ »

قال : « انك لم تفصح المقال ، وقد نفذ السهم وجرح الامام جرحا لا اظنه ينجو منه ، ولو أصغيت اليك لنجا امير المؤمنين ، لقد وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله »

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكى الناس ، وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منه تفصيلا لما اجمل

اما هو فاشتغل بحل قيود سعيد وهو يقول : « قاتل الله تلك العجوز المختالة ، انها اغرتنى بك وقد نجحت حيلتها »

فهم سعيد بأن يقص حديثه على اثر ما رأى من رغبة القوم فى ذلك فاذا ببعض الناس يقول : « ان الامام فى عافية وهو يحدث ابنيه الحسن والحسين»

فتحول الجمع الى غرفته كالسيل ، وانتهز بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستفهمه سبب فشله فى مهمته . فقص عليه الخبر باختصار ، ووعده باتمام الحديث فى فرصة اخرى . وسار مع الجمع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الأقدام . فأطل من نافذة فرأى عليا متوسدا فراشه وهو معصوب الراس بمنديل يغطى الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجهه ولكن آثاره بقيت ظاهرة على لحيته

فتذكر سعيدا جده ابا رحاب وما اوصاه به فأجهش بالبكاء ، على انه ما لبث ان سمع عليا يتكلم فوجه اليه انتباهه فرآه يخاطب ولديه الحسن والحسين وهما جاثيان عند راسه وقد اشتد بهما الحزن ، ولكنهما يتجلدان تجلد الرجال ، وهما ينصتان واعينهما شاخصة فى وجه الامام الجريح ، والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الامام من الآيات البينات وهى آخر خطبة القاها . فاذا هو يقول :

« اوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما . وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واعينا الضائع واصنعا للأخرى ، وكونا للظالم خصيما وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم »

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال : « هل حفظت ما اوصيت به اخويك؟»

قال : « نعم »

قال : « فانى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولاتقطع أمرا دونهما » . ثم قال لهما : « اوصيكما به فانه اخوكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما يحبه » . وقال للحسن : « أوصيك أى بنى بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء فانه لا صلاة الا بطهور ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الحرم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ، والتثبت فى الامر ، والتعهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش »

□

وما أتم وصيته حتى أجهد وتعب من الكلام وما كان العهد به أن يتعب من الوعظ والخطب ساعات متوالية . ثم أمر بتلك الوصية فكتبت ودفعت الى الحسن ، ولم ينطق الامام بعد ذلك الا بقوله : « لا اله الا الله ». حتى مات(١) فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء . ثم غسله الحسن والحسين وعبد الله ابن جعفر وكفن بثلاثة أثواب ودفن

ولما راى سعيد وقوع المصاب تذكر قطام وخبثها وقال فى نفسه : « والله لم يقتله الا هى ولولاها لم يقتل امير المؤمنين »

وفيما هو يفكر فى ذلك ويبكى جاء قنبر فقبض على يده وجره فسار فى أثره وهو لا يدرى ما يريده منه . وسار بلال فى أثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولا هناك . فلما دخلوا عليه هم سعيد بالكلام فقال قنبر : « تمهل لنرى ما يقول هذا اللعين » . فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليه ظل جالسا ولم يعبأ بهم ، ولكنه خاطب قنبر قائلا : « أظنك جئت تدعونى الى النطع ، لأن صاحبكم مات »

قال : « الى ذلك جئت ، ولكننى اسألك عن هذا الرجل هل تعرفه ؟ » (واشار الى سعيد) فقال : « كلا »

وكان قنبر قد أراد أن يتحقق براءة سعيد ، وقد شك فى اشتراكه مع

(١) هذا ما رواه ابن الأثير من أمر مقتل الامام . وذكر صاحب تاريخ الخميس أنه توفى صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر . وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة من سنة أربعين (عن أبى عمر وابن عبد البر) . وفى الصفوة قال العلماء بالسير : ضربه عبدالرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من رمضان ، وقيل ليلة احدى وعشرين منه سنة أربعين ، فبقى الجمعة والسبت ومات ليلة الأحد ، وقيل يوم الأحد . وغسله ابناه وعبد الله ابن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن فى السحر . وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقه . وذكروا أنه دفن فى مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة ، وقيل غير ذلك

ابن ملجم فى المؤامرة . فقال له : « الم يكن لهذا الاموى يد معك فى القتل ؟ »
فتبسم ابن ملجم وقال : « انه اضعف من ان يقـــدم على ذلك . انى لاعرفه »
فقال بلال : « هل تعرف قطام بنت شحنة ؟ »
قال : « اعرفها وهى خطيبتى ودم ابن ابى طالب مهرها »
فصاح فيه قنبر : « اخسأ يا لئيم انك ملاق حتفك قريبا ، قم الى الموت »

اما سعيد فلما سمع قوله ان قطام خطيبته اشتد حنقه وغيظه من تلك المراة ، وقال فى نفسه : « انى والله سآخذ بالثأر منها بيدى »

وكان الحسن هو الذى أمر باحضار ابن ملجم ليقتله عملا بوصية أبيه ، فلما حضر بين يديه ، نظر الى ما حوله فراى الناس ينظرون اليه بأعين تلتهب حنقا وكل يود أن يقتله بيده ، فلم يعبأ بما رأى ، ولم يصبر حتى يكلمه احد منهم فنظر الى الحسن وقال : « هل لك فى خصلة ، والله قد أعطيت الله عهدا الا أعاهد عهدا الا وفيت به ، وانى عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية او أموت دونهما ، فان شئت خليت بينى وبينه . فلك عهد الله على ان لم اقتله ثم بقيت ان آتيك حتى أضع يدى فى يدك »
فقال له الحسن : « لا والله حتى تعاين النار »

وكان الناس قد جاءوا بالنفط والبوارى والنار وقالوا : « نحرقه » . فقال عبد الله بن جعفر والحسين بن على ومحمـــد بن الحنفية : « دعونا نشف ما فى انفسنا منه ، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه ، فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع ، وجعل يقول : « انك لتكحل عينى عمك بمكحول محمص » . وجعل يقرأ : « اقرأ باسم ربك الذى خلق» . حتى اتى على آخر السورة وان عينيه لتسيلان على خديه ، ثم امر به فعولج على لسانه لقطعه فجزع فقيل له : « قطعنا يديك ورجليك وسملنـــا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا الى لســـانك جزعت » . قال : « ما ذاك من جزع الا انى اكره ان اكون فى الدنيا فواقا لا اذكر الله » . فقطعوا لسانه ثم جعلوه فى قوصرة فاحرقوه بالنار

ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم شفى بعض غيظه ، ولـكن قوله : « ان قطام خطيبتى وان قتـــل على مهر لهـــا » . بقى يرن فى اذنيه ، وازداد تعجبا من دهاء تلك المراة واستغرب أن يكون فى النساء واحدة فى مثل ذلك الدهاء ، وتذكر ما حدث له معها من الوعود وما ارتكبته فى سبيل الانتقام لابيها واخيها من الجرائم ، وكم قتل بسببها من الرجال وعبـــد الله ابن عمه فى جملتهم . فاتقد غيظا وظل برهة غارقا فى هواجسه لا ينتبه لما يدور حوله من الاحاديث ولا يفقه شيئا من انهماك الناس فى مبايعة

الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلباه فقال : « هلم بنا يا مولاى من هنا إن لى كلاما أقوله لك »

قال : « هيا بنا » ومشيا ولم ينتبه لهما أحد لاشتغال الناس بالمبايعة

وعادا توا الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين ، وسارا من هناك الى منزل سعيد ، وكانا فى أثناء الطريق يلتقيان بأهل الكوفة مسرعين زرافات ووحدانا الى منزل الامام على على أثر ما سمعوه عن مقتله ، وهما لايكلمان أحدا

ولم يكن سعيد قد دخل منزله منذ ذهابه الى الفسطاط فلم يجد فيه احدا لأن الخدم ساروا فى جملة السائرين الى منزل الامام . وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما لهول ما قاساه بعد سفره الطويل . فدخل الدار من باب خاص به وترك بلالا يهتم بالجملين . وبدل ثيابه وهو يفكر فيما رآه من الأهوال وما يتوقعه بعد موت الامام على من تغير المآل

ثم توسد وسادة يلتمس الراحة وهو يفكر فيما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام . ودخل بلال عليه فرآه نائما فتوسد مقعدا فى غرفة اخرى ، واخذ يتهيأ لمكاشفة سعيد بما يجول فى خاطره من الشؤون حتى نام

ظل سعيد وبلال نائمين حتى الغروب فأفاق سعيد على صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم ، وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار

اما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالا فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن فى اغلاق الباب دونهما ، فأمر خادما فأضاء له مصباحا وضعه على مسرجة وخرج ، فأغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام باد على وجهه

فقال سعيد : « قل يا بلال ما بدا لك »

قال : « أيأذن لى سيدى فى أن اسأله ما الذى دعا الى فشل مهمته ؟ »

فتنهد سعيد وقال : « ان السبب قديم يا بلال لم أكن لأقصه عليك لو لم آنس منك ما آنسته من الغيرة والمروءة »

قال بلال : « ولم يكن من شأنى أن اسألك عنه لو لم الحظ من خلال الأحداث ما يشف عن بعض السر ، ولعلى اذا اطلعت على حقيقة الحال أن آتيك بخبر جديد »

قال لا أخفى عليك أن السبب فى فشلى امرأة اظنك سمعت اسمها فى هذا الصباح من فم ابن ملجم »

قال : « اظنها قطام بنت شحنة »

قال : « نعم ، قبحها الله من داهية محتالة . فانها كانت سببا فى قتل ابن عمى وقتل الامام وابن ملجم . ولا يخفى عليك ان قتل الامام لا يقتصر شره على قتل النفس ولـكننا نخاف منه الفتنة . ولا ريب فى انها أرادت ايضا ان تقتلنى بوسيلة دبرتها » . وقص عليه حديثه مع قطام مختصرا من اول معرفته بها الى تلك الساعة

فلما فرغ سعيد من كلامه عض بلال على انامله وتحرق ثم تنهد وسكت

فقال سعيد : « ما بالك يا بلال ، وما الذى يدعوك الى التنهد ؟ »

قال : « يدعوني اليه ندمى على ما فاتنى من القبض على هذه المراة فى صباح هذا اليوم لانى رايتها فى قبتها بالمسجد وقد مر بها ابن ملجم ورفيقه فكلماها قبل اقدامهما على تلك الفعلة الشنعاء ، ولـكننى كنت اظن عليا والهفى عليه قد علم منك بما ينويه ابن ملجم فلا يترك له فرصة لارتكاب ذلك المنكر . وقد رايت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد ان تحققت نيل بغيتها بقتل الامام ، فياليتنى قبضت عليها . ولكن ما قدر كان . وقد قتل الامام وقتل قاتله والأمر فى ذلك لله . على أننى اذا عشت فسانتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق ان ابن ملجم هـذا كان قد خطب سيدتى خولة من ابيها ولكنها لم تكن تحبه ولم ترض به »

ولم يكن بلال عارفا باطلاع سعيد على هذا الخبر من خولة فلم يشأ سعيد ان يعترف له به فظل صامتا ليسمع بقية الحديث

فقال بلال : « ولا شك أن سيدتى خولة ستفرح اذا سمعت بمقتل هذا الغادر لنجاتها من شركه »

قال سعيد : « وما الذى يحملها على قبوله اذا لم تكن ترغب فيه ؟ »

قال : « ان اباها هو الذى اطمعه بها ووعده بزفافها اليه ، أما هى فانها كانت قد عزمت على رفضه مهما تكن العاقبة »

تذكر سعيد حديث خولة ، وتمثلت له صورتها ملكا كريما وما هى عليه من الحمية والانفة والمروءة ، وما شعر به من الميل اليها يوم لقيها فى الفسطاط ايام كان لا يزال مخدوعا بمواعيد قطام ومشغولا بأمر الامام على ، فلم يترك لقلبه يومئذ مجالا للحب ، فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها واحب أن يسمع حديثا عنها فقال : « وهل انت واثق من انها كانت مصممة على رفضه ولو اغضبت اباها ؟ »

قال : « نعم انى واثق بما اقول وقد لحظت شيئا آخر . . » . وسكت وهو يبتسم

قال : « وما هو ؟ » . قال : « الم تلحظه انت ؟ »

قال : « كلا وما هو ؟ . قل » . قال : « لحظت انك وقعت من نفسها موقعا

عظيما ، ولحظت ايضا انك لم تجهل ذلك »

قال : « كيف عرفت انى لم اكن أجهله »

قال عرفته مما رايت من خروجها اليك غير مرة ليلا ، التماسا لنجاتك وهى تستجهلنى ولا تنتبه الى . ولكنك كنت فى شاغل يومئذ بلهفتك على انقاذ الامام على من كيد الحاقدين »

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سره ، وتذكر انه شعر بشىء منه يوم كان فى الفسطاط وان اشتغاله بأمر الامام وخوفه عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حال بينه وبين تمكين حبل المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذ احب أن يستطلع جلية الخبر فقال له : « افصح عما فى نفسك انى لم افهم مرادك »

فقال بلال : « ان مرادى واضح مما ذكرته لك ، وها انذا افشى لك سرا هو ان مولاتى خولة حين امرتنى بأن اسير فى ركابك ، اوصتنى بأن انتظر حتى نكشف دسيسة ابن ملجم وننقذ الامام عليا ثم اطلعك على رغبتها فى عودك الى الفسطاط لانها تكون قد نجت من خطبة ابن ملجم وتكون انت قد فرغت من مهمتك ، ولا ادرى ما تنويه هى فى رجوعك ؟ »

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال له : « اما رجوعى الى الفسطاط فلا يخلو من مجازفة لما فى ذلك من الخطر على لانى انما جئت منها فرارا من القتل . فاذا عدت فانما أعرض نفسى لما هو شر من القتل ، وابن العاص لا يعفو عنى ، ناهيك بكرهى لبلد فقدت فيه ابن عمى » . وسكت هنيهة وتنهد ثم قال : « وهل انت واثق من ميلها الى ، فانى والحق يقال رايت فى خولة من الحمية وعزة النفس مع التفانى فى نصرة الامام ما جعل لها فى نفسى مقاما رفيعا . ولا اكتمك ما خالج قلبى يومئذ من الميل اليها ولكننى كنت ممالق القلب بقطام اخزاها الله فانها خدعتنى »

فابتدره بلال قائلا : « لا تذكر هذه الخائنة يا مولاى ، انى والله اكره ان اسمع ذكرها ، لانى اشعر بقصورى وجهلى اللذين سببا نجاتها ، وهى والحق يقال أصل هذا الشر العظيم ... ففى سبيل انتقامها لأبيهاواخيها ارتكبت أعظم اثم حدث فى الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعم)ولكننى سوف اذيقها حتفها واسفك دمها ولو بذلت فى هذا حياتى » . قال ذلك وهو يحرق اسنانه حنقا وأسفا

فقال سعيد : « وما ظنك بها الآن . اباقية هى فى الكوفة ؟ »

قال : « لا اظنها تبقى بعد ما ارتكبته فيها ، وقد افتضح امرهاوعلم الخاص والعام انها شريكة فى القتل »

قال : « وأين تراها تذهب ؟ »

قال : « لا أدرى ؛ وسأبحث فى ذلك صباح الغد ، أما الآن فلنعد الى ما كنا فيه فانك اذا لم ترجع معى الى الفسطاط احسبنى مقصرا فيما عهد الى فيه . وخولة يامولاى يندر مثلها بين البنات جمالا وتعقلا وانفة ، ولولا ابوها وتشيعه لمعاوية لاتت بما لم يأته أعاظم الرجال . ولكنه كثير التشيع لابن ابى سفيان وكثيرا ما كانا يختلفان أمامى ويختصمان على أمور أستدل منها على ذلك »

واحس سعيد بعاطفته تتجدد ، وشاقه حديث خولة وتاقت نفسه اليها ، ولكنه استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع فى قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر أن المتآمرين كانوا قد اجمعوا على قتله وقتل معاوية فى مثل ذلك اليوم ، فقال : « ألم أخبرك أن اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية ايضا »

قال : « بلى اخبرتنى ولكننى لا أخاف على ابن العاص الوقوع فى الشرك »

قال : « وما الذى ينجيه منه وهو لا يدرى ما يمكرون ، فاذا فنكوا به سهل على الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك أسهل ايضا اذا قتل معاوية فى الشام »

قال بلال : « ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ، ولا بد لنا من التربص حتى تأتينا الأخبار أو ان نذهب نحن للبحث عنه »

قال سعيد : « لا صبر لى على الانتظار ، ولا أظنك تصبر عليه . فأرى أن تسير أنت على عجل الى الفسطاط تستطلع جلية الخبر ، وتعود باليقين . واذا جعلت طريقك على الشام جئت بالخبرين معا »

قال : « أمرك يا سيدى . وأنت ماذا تفعل ؟ »

قال : « ابقى هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام ، فانى أتوق للانتقام منها فاذا لم اوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمرى . انها قتلت ابن عمى وأمير المؤمنين وكادت تقتلنى ! »

قال : « بالله دع امرها لى ، فانى أريد أن أشفى غليلى منها ومن عبدها الزنيم ريحان لا أراحه الله ، ولكننى أرى سفرى الى الفسطاط أدعى الى العجلة »

فأعجب سعيد بحماسة بلال ، وزاد ميلا اليه وشوقا الى خولة . واخذ يعيد الى ذهنه ما آنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة عليه ، وكيف كان التقاؤه بها سببا فى نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع . فضلا عما رآه فيها

من الغيرة على أمير المؤمنين . ولكنه لم يكد يذكر عاقبة ذلك السعى وحبوط ما دبره حتى اشتعل غيظا ، ولكنه لم ير حيلة فيما مضى فقال : « لقد قضى الأمر يا بلال ولم تبق لنا حيلة فيما مضى ، فاذهب أنت الى الفسطاط وعرج فى طريقك على الشام ثم عد الى بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية . وأما أنا فانى باق هنا أبحث عن قطام وعجوزها وعبدها ، فاذا عدت فوافنى الى هذا المنزل »

قال : « وخولة ؟ ماذا أقول لها ؟ »

قال : « اذكر لهـا ان شـوقى اليهـا لا يوصف ، وان ما عنـدى اضعاف ما عندها ، ولها منى عهد الله أن لن ينالها سواى »

قال : « أما رضاها فأنا الضمين لك به » . وسكت بلال وقد ابرقت اسرته سرورا بما سمعه . ثم قطب وجهه بغتة وقال : « ولكن هب أن ابن العاص ما زال حيا وأبوها كما تعلم شديد التشيع له فلا اظنه يرضى بك زوجا لها ، فما الحيلة ؟ »

قال : « هذا راجع الى اختيارها ، ومتى عدت الى بالخبر نتدبر الأمر فى حينه ، أما الآن فلا نضيع الوقت . امض الى الفسطاط على عجل وعد الى بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال »

فأخذ بلال يستعد للرحيل ، وسعيد صامت يفكر فيما هو فيه. واصبح الحصول على خولة شغله الشاغل ، ولـكن فشله فى انقاذ الامام أثار فيه حب الانتقام من قطام . فصمم على الفتك بها اما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة

نجاة عمرو بن العاص

فلنترك سعيدا وبلالا على حالهما ، ولنعد الى خولة فى الفسطاط . فقد تركناها عائدة فى ذلك الليـــل الى منزلها على طريق عين شمس . وكان أبوها قد حبسها فيه . فلما أخرجها سعيد منه وسارا معا الى الدير ثم خرجت هى وحدها لم تر خيرا من أن تتظاهر بالبكاء والخوف فهرعت الى منزل أبيها باكية وكان هو لا يزال غائبا يتداول مع عمرو بن العاص فى شأن الدين قبض عليهم فى ذلك اليوم . فلما فرغ من أمرهم وحرض ابن العـــاص على اضراقهم سار الى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحا وليس هناك أحد . فاستغرب الأمر وعاد توا الى منزله فرأى خولة جالسة فى غرفتها تبكى . فتجاهل سبب بكائها وقال : « ما بالك يا خولة ؟ »

قالت : « كيف تتركنى وحدى فى ذلك البيت ألم تخف على من ابنـــاء السبيل ؟ »

قال : « ألم ترى انى اقفلت الباب واوصدته خوفا عليك من ذلك ؟ »

قالت : « كيف تفعل بى هذا ؟ أعاصية أنا أمرك ؟ » . واستغرقت فى البكاء فتحركت فيه عاطفة الأبوة ، وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لهـــا : « وكيف خرجت ؟ »

قالت : « لمـــا رايت نفسى حبيسة هناك خفت على حياتى فجعلت اناديك واستغيث بك ، ثم سمعت قرقعة وضجيجا ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفى فصحت واستجرت ، فقيض الله لى رجلا فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت الى البيت وانا أرتعد من شدة الاضطراب »

فطيب خاطرها ولامها على خوفها ، ولكنه سر لظنه أن حيلته قد انطلت عليها ، وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد . ثم سمعت لغط الناس فى المدينة فانتبهت الى أن الجند لا يلبثون أن يفتحوا بيت الفقارى ، فاذا راوا سعيدا هناك قبضوا عليـــه فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها اوصت عبدها بأن يوصد الباب ، واذا سأل أبوها عنها يقول له انها نامت وأقفلت الباب عليها لشـــدة ما اعتراها من الخوف فى ذلك المساء . فبات أبوها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة ، أما هى . فبعد انقاذها سعيدا عادت الى غرفتها مضطربة فلم تستطع رقادا ،

وجعلت تفكر فى وسيلة تنقذ بها عبد الله ، ولم تمكث قليلا حتى سمعت لغطا فى دار ابيهـا ، وفهمت من خلال اللغط ان ابن العاص عول على اغراق اسراه فى النيل ، وسمعت أباها يضحك سرورا لهذا القرار ، فأسفت اسفا شديدا، ولبثت برهة تفكر فيما تفعل، حتى حدثتها نفسها لفرط انفعالها ، بأن تخرج فى أثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبد الله . فغافلت اباها وكان قد ذهب الى فراشه وخرجت وأوصدت الباب وراءها ، وبلال نائم أمام عتبته ، وسارت فى اتجاه ضفة النيل حيث ظنت انهم ساقوا الأسرى وهى عزلاء دفعتها حماستها الى الخروج هكذا . فالتقت هناك بسعيد وطار ما دار بينها وبينه ووعدته بارسال عبدها ليصحبه الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها

فلما أشرفت على المنزل رأته هادئا وأهله نيام ، فانسلت الى الدار فرأت عبدها بلالا نائما فأيقظته فهب من رقاده مذعورا وكانت تعلم شدة تعلقه بها وتفانيه فى مرضاتها ، فدعته الى غرفتها فتبعهـا فلما خلت به قالت : « أتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « كلا يا مولاتى ولكننى رهين اشارتك »

قالت : « أتطيعنى يا بلال ؟ »

قال : « كيف لا وأنا عبدك وطوع أمرك ؟ »

قالت أريد أن أعهد اليك فى أمر خطير فهل تقوم به ولو أدى الى الموت ؟ »

قال : « ان الموت هين فى سبيل مرضاتك . مرى يا سيدتى بما تشائين فاننى فى خدمتك »

قالت : « أسمعت بما حدث اليوم فى عين شمس وما فعـل ابن العـاص بالمجتمعين هناك ؟ »

قال : « نعم وقد ارتكب أميرنا فيه أمرا جسيما وقتل كثيرين »

قالت : « أما سرك ما فعله ابن العاص بأولئك العلويين ؟ »

قال : « اذا كان سرك فانه يسرنى »

قالت : « وما ظنك بى ؟ »

قال : « لا أظنك راضية عن هذا العمل ، لعلمى أنك على غير دعوة الأمويين، وان يكن سيدى ابوك متفانيا فى سبيل التشيع لهم »

قالت : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « أنت تحسبيننى ساذجا وقد قضيت فى خدمتك أعواما طوالا واطلعت على مكنونات قلبك وأنت لا تعلمين . وأما الآن فقد دفعتنى الى التصريح بأنى اعلم غرضك ولم يفتنى شىء مما تقاسينه فى سبيل الدفاع

عن الامام على ولا سيما امس ، وانت لا تعلمين شيئا الا انى احرس هـذا الباب الموصد واكتم خروجك منه عن أبيك »

فاستغربت خولة قوله ولكنها سرت به وقالت : « وما قولك فيما حدث امس ؟ »

قال : « اتحسبيننى غافلا عما قاسيته فى سبيل انقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة ، وقد كان فى جملة من خيف عليهم الوقوع فى شرك ابن العاص فأنقذته بهمتك ؟ »

فتحققت انه كان يراقب حركاتها وسكناتها. فتهلل قلبها سرورا فقالت : « اما والحال على ما أرى فاخبرك ان ذلك الشاب مسافر الآن الى الكوفة ، واريد منك ان تذهب اليه بالجملين الى سفح المقطم ، فاذا التقيت به هناك فسر فى ركابه الى الكوفة واحذر ان يدرى بك احد او ان تذكر ذلك لأحد »

ولم تتم كلامها حتى خرج مسرعا يهم باعداد الجملين ، فاسترجعته وقالت : « قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة أخرى اقولها لك »

فعاد وقال : « لبيك يا مولاتى قولى ما تشائين »

قالت : « انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام على من القتل ، وستعلم تفصيل ذلك منه . واما الآن فيكفينى ان أوصيك به خيرا ، واذا انتهيتما من تلك المهمة فارجع به الينا ، فانى أكره ابن ملجم الذى يريده ابى خطيبا لى . هل فهمت ؟ »

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول : « فهمت »

فقالت : « سر فى حراسة الله ، وكنت أود ان ازيدك بيانا ، ولكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالما باذن الله ، واحذر أن تبوح لأحد بما سمعته او رأيته »

فخرج وهو يلتفت اليها كأنه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بأمانته ، ولكنه كان فرحا بما كلفته به ، فأعد الجملين وخرج الى سفح المقطم وصحب سعيدا كما تقدم

▭

ولما خرج بلال عادت خولة الى غرفتها ، وغلقت الباب واستلقت على فراشها وقد تعبت مما قاسته فى ذلك اليوم من المشاق ، وكان قد هم بها النعاس لولا ما شغل ذهنها من عظائم الأمور ، وما تخلل ذلك من شعورها بالميل الى سعيد ، ولولا الحياء واهتمامها بانقاذ الامام لصرحت به . وذلك لما آنست فيه من الرغبة فى انقاذ الامام على ، مع ما فى قلبها من النفور الشديد.

من ابن ملجم حتى كرهت أباها من اجله ومن اجل تشيعه للأمويين

قضت بقيـــة ليلهـــا لم يغمض لها جفن ، وهى تفكر فى سعيـــد ، وقلبهـــا يخفق ميلاً اليه وخوفا من فشله فى مهمته . فجعلت تقدر الوقت اللازم لسفره الى الكوفة فرأت أنه اذا أسرع لا يفوته الوصول اليها قبـــل الأجل المضروب للقتل . وكان يعترض مجرى أفكارها خوفها مما قد يطرأ عليه فى الطريق فيعيق وصوله فترتعد فرائصها فرقا على حياة الامام . وفى قتله ضربتان كبيرتان : الاولى موته ، والاخرى عودة ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بأن ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا ينجو من القتل . ثم تحول ذهنها الى ابيها وخروج عبدها بالجملين ، وأعدت أعذارا تنتحلها فى سبب خروجه فلم تجد خيرا من أن تدعى فراره الى حيث لا تعلم

وكان ابوها قد افاق فى اثناء الليل وهى غائبة فجاء غرفتها ليراها فوجد الباب موصدا فسأل العبد عن ذلك فقال : « ان سيدتى استولى عليها الخوف على غير المعتاد فأوصدت الباب وأوصتنى بأن أنام خارجا »

فقال ابوها فى نفسه : « مسكينة خولة ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثرا فيها » . وعاد الى فراشه وهو مصدق ما قاله العبد

وفى الصباح جاء الغرفة فراى الباب لا يزال موصدا ولكن بلالا ليس أمامه فقرعه فنهضت خولة وفتحته وهى تتظاهر بالذبول لطول استغراقها فى النوم . فامسكها بيده الواحدة ووضع الاخرى على كتفهـــا وهو يقـــول : « لعلك لا تزالين خائفة يا بنية ؟ »

قالت : « كلا يا سيدى انى تحت جناحك فى امن وطمأنينة »

فقال : « بورك فيك تعالى نتناول الطعام » . ثم نادى بلالا فلم يجبه أحد فقال : « أين بلال ؟ »

فقالت : « لا أدرى لعله ذهب الى السوق »

فانتظر هنيهة فلم يجىء ، فأرسل خادما فى اثره فلم يقف له على خبر ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان اشكل عليه أمرَه ، فقالت خولة : « يظهر أنه اخذ الجملين وفر » . فبعث اناسا فى اثره الى ضواحى المدينة فلم يأته أحد منهم بخبره ، فصدق انه فر

□

اما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على ابيها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التى ذهب فيها سعيد ، واخذت تفكر فى أمره وهى خائفة أن يتأخر فى الطريق عن الوقت المضروب لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثورا ، ولكنها

كانت مع ذلك فرحة لنجاتها من ابن ملجم ، لعلمها انه أن فاز بقتل الامام على فلا ينجو من سيوف أشياعه وهم كثار فى الكوفة . ولكنها شغلت من ناحية اخرى بسعيد بعد أن انتهت من تدبير سفره ولم تكن واثقة من وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وتمنت لو يعود عبدها بلال ليطمئن قلبها ، على انه لم يكن قد أزف زمن رجوعه بعد فصبرت على مضض تترقب احداث القدر

وجاء أبوها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه سيماء البشر وقرأت فيه خبرا جديدا ، فأخبت أن تعرف كنهه . فلما جلسا الى الطعام احتالت على استطلاع حديثه فذكرت له أمر العلويين والقبض عليهم وتفننت فى استرضائه ، فابتسم وانقاد الى الكلام مع ما هو فيه من الالتهاء بالطعام ، وكأنها أدركت ما فى ضميره فتوقفت عن طعامها تنتظر حديثه ، فالتفت اليها وقال وهو يبتسم : « لقد عودتنى يا خولة ان أحاذر فى الكلام معك فيما أخشى افشاءه »

فاستغربت وقالت : « انى لأعجب يا أبتاه من سوء ظنك بى ، فأنا فتاة متحجبة فى هذا البيت لا أعرف من أهل الدنيا احدا سواك ، فكيف تقول انك تحاذر ان تذكر أمامى ما تخاف افشاءه . أى سر بحت به الى فأفشيته ؟ » . قالت ذلك وهمت بأن تتباكى

وعاد هو فابتسم وقال : « لم أقل انك تبوحين بالسر ولكن ... » . وسكت

فقالت : « ولكن ماذا يا أبتاه ؟ انك تظلمنى بظنونك ، ويسوءنى الا يكون لى نصيب من الثقة حتى ولا من ابى الذى لا أعرف أحدا سواه »

قال : « لا أخفى عليك يا ابنتى اننى كنت ولا أزال أعتقد أنك ميالة الى الأعداء .... و .... »

فابتدرته وقالت : « وأى أعداء تعنى ؟. أعوذ بالله من هذه التهم ! كيف تقول ذلك ؟ ! » . وتنحت عن المائدة وأعرضت عن الطعام

فقال : « انى الحظ ميلك الى العلويين ، وأنت تعلمين أن عليا حاربنا وقتل جماعة منا فى النهروان وغيرها . ولا ألومك على ميلك اليه ، لأننى كنت أنا ايضا مثلك فى جملة المتشيعين له ، ولكنى أصبحت بعد وقعة صفين ناقما عليه لما ارتكبه فى مسألة الحكمين بحيث أخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يدا فيها »

فأدركت أنها اذا أقرت بحقيقة ميلها ألقت نفسها فى تهلكة ، فلم تر خيرا من الانكار فقالت : « وما ادراك أنى باقية على الراى القديم ، فانك ان كنت انت انحرفت عنه فمن أكون أنا حتى اخالفك فيه »

قال : « لو لم تكوني على هذا لمـا تمنعت عن زواج ابن ملجم وانت تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه أحد من المسلمين فى هذا العصر . فقد صمم على قتل على »

فأجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها بأن تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهى انما افتتحت الحديث لتستطلع ما فى نفس ابيها ، فأنكرت التهمة كل الانكار وقالت : « ان ما تنسبه الى من امر ابن ملجم ظلم يا مولاى ، فانى لم ارفض الرجل وهو خطيبى متى عاد من رحلته هذه . وكيف تقول انى لم أقبله وأنا لم آنه بكلمة فى هذا الشأن ؟ »

فضحك أبوها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضأن بين يديه ، وقال : « نعم انك لم تفوهى بكلمة ، ولكننى ادركت من مجمل حالك انك غير راضية به » . وكان قد أتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فأبت ان تتناولها واعرضت دلالا وحنقا

فقال لها : « خذى كلى ياخولة ولا يسؤك كلامى »

قالت : « انما ساءنى لأنى أرانى مظلومة واظنك عاملتنى معاملة العدو فحبستنى فى ذلك البيت المظلم بناء على هذه الظنون »

قال : « لقد اذكرتنى حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال ، وهو الامر الذى جئت لاقص خبره عليك ، ولكننى لا اقول كلمة قبل أن تصدقينى الخبر : هل انت على ولاء ابيك تأتمرين بأمره . أم ماذا ؟ »

فتغاضبت وقالت : « انى اراك تحرجنى وتلجئنى الى الانحراف عن دعوتك بما تثيره على من الظنون وانا لا ابغى من هذه الحياة غير مرضاتك »

فمد يده وهو لا يزال قابضا على قطعة اللحم وقال : « خذى اذن هذه اللقمة واصغى لما اقوله لك »

فتناولتها من يده وقالت : « قل » . ووضعت اللقمة فى فمها وهى لا تمضغها لانشغال ذهنها بما ترجو سماعه فقال : « اعلمى ياخولة ان امرنا حفظه الله علم بقدوم رجلين اتيا من الكوفة للاجتماع ببعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سرا فى خرائب عين شمس ، فبعث جندا من شرطته فقبض عليهم فى مجتمعهم تحت الارض . الم تسمعى بهذا ؟ »

قالت : « عرفت بعض خبره بعد حدوثه »

قال : « فاعلمى اننا وجدنا بين المقبوض عليهم فى تلك الليلة واحدا من ذينك الاثنين اسمه عبد الله . واما الثانى فقد نجا ، ولا ندرى من هو ، ولعله لم يشهد الاجتماع . اما الاول فساقوه مع من سيق تلك الليلة الى دار الامارة وقد يكون وقع اليك ان الامير راى ان يقتل اولئك المتآمرين ، وكنت انا ممن اشار عليه بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا احياء . فامر عمرو باغراقهم فى النيل

وعبد الله معهم ، وقد عدت انا من حضرة الامير وهم يتهيأون لارسالهم الى النيل وعلمت فى اليوم التالى انهم اغرقوهم »

فلم تر خولة فى حديثه شيئا لم تكن تعرفه ، ولكنها رأت ان الحديث لم يتم فصبرت وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع الغريب

أما هو فقال : « وقد كنت أعتقد انه أغرقهم جميعا حتى كان اليوم وانا فى منزل الامير فرأيت فى بعض جوانبه عرفة مقفلة كنت كلما جئته اراها مغلقة فلم أهتم بشأنها ، فلما كان عصر اليوم دخلت على الامير وانا عائد من عملى ، فذكرت له أمر ابن ملجم ومهمته وطفقنا نتحدث فيما عسى أن يكون من أمره فى الكوفة ، فلما وصلنا الى ذلك رأيته يبتسم ، وتوسمت فى وجهه خبرا فرغبت اليه أن يطلعنى على ماحدث ، وأنت تعلمين ما لى من الدالة عليه . فتردد اول الامر، فألححت عليه فقال لى : « اتعلم من هو المقيم بهذه الغرفة ؟ »

قلت : « لا يامولاى ، لا أعلم ، وليس من شأنى السؤال عما فى منزل الامير »

فضحك عمرو حتى رقصت لحيته وقال : « انى حبست فيها رجلا سينقذ حياتى من القتل »

فعجبت لقوله واستغربت ما يشير اليه ، ولبثت انتظر الافصاح فقال لى : « اعلم ياصاحبى انى حبست فى هذه الغرفة عبد الله الاموى الذى كان قدومه سببا فى قتل العلويين منذ ايام »

فلما سمعت خولة ذكر عبد الله علمت انه رفيق سعيد، وخفق قلبها فرحا بنجاته ، ولكنها استغربت سبب تلك النجاة ، على انها ظلت متجاهلة تتوقع سماع تتمة الحديث ، وأبوها يتشاغل عن اتمامه بالمضغ والبلع ، وكان اكولا

فلما خلا فمه من الطعام عاد الى الحديث فقال : « فاستغربت كلامه وسألته عما عساه أن ينجيه من الموت ؟ فذكر لى ان صاحبك ابن ملجم خطيبك هو احد المتآمرين على قتله ايضا مع على فى يوم واحد ، وانه سمع ذلك من عبد الله هذا فلم يصدق قوله لغرابته واساء به الظن لعلمه ان ابن ملجم من رجال دعوتنا ، ولكنه لم يسعه الا أن يستبقيه ويحبسه فى منزله ريثما يأتى الاجل المضروب لقتل على وقتله وهو يوم ١٧ رمضان ، فاذا تحقق صدق قوله أفرج عنه والا ضرب عنقه. فلما سمعت ماقاله الامير استغربته كل الاستغراب وخفت ان يكون قد أساء الظن بى ، فأقسمت له الايمان المغلظة انى لم أكن عالما بغير عزم ابن ملجم ، وسألته هل عرف اسم الرجل الآخر الذى تعهد بقتله فذكر لى ان الاموى الاسير لايعرف الاسم »

قالت خولة : « وماذا تنوى أن تصنع ؟ » . قال : « الحق يا ابنتى اننى لم ادر كيف اؤكد للأمير صدقى واخلاصى بخافة ان يبقى على سوء ظنه بى ، فبالغت فى اظهار الغضب من ابن ملجم ، وقلت له : (انى لو عرفت خداع الرجل ما رضيت به صهرا ، وانا منذ الآن مانعه من خولة) . ولما قلت له ذلك

التفت الى وقال : (لايكفيني هـذا الوعد وانا اعرف خولة واعرف مقامهـا ، وطالما كنت اريدها لأحد اولادى ، واما الآن فاني اطلب اليك اذا صدق هـذا الاموى فى قوله ان تكون ابنتك لخولة عروسا له ، لأن الرجل اموى وكان على دعوتنا حتى اغراه بعض الناس بالتشيع لعلى) .. »

فلما وصل الى هذا الحد علمت خولة ان عبد الله لايزال حيا ، واطمأن قلبها وادركت انه لم يذكر اسم المتآمر الثالث على قتل معاوية مخافة ان يرسل عمرو بخبره الى الشام فينجو معاوية منه

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها له اطرقت حياء وسكتت وقلبها يختلج فرحا بنجاتها من ابن ملجم ، ثم تذكرت حبها سعيدا وما بعثت به اليه مع عبدها بلال ، فاحتارت فى أمرها على انهـا لم يسمعها الا كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهى تهز راسـها استغرابا : « اصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو ايضا انها لمصادفة غريبة ؟ »

قال : « حقا انها مصـادفة نادرة ، ولـكن ما قولك فى اقتراح عمـرو ؟ »

فسكتت ولم تجب

فقال : « ما معنى سكوتك وانت تعلمين اننا لانستطيع رد ذلك الاقتراح ؟ »

قالت : « دع هذا الآن ، فانه ليس بالامر المهم ، وما خولة الا جارية حقيرة لاتستحق هذا الاهتمام ، ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى مايكون »

فقال : « اننا صابرون ، وارجو ان يكون خطيبك الجديد أهلا لك وليس مثل ابن ملجم الخائن ، على انى ادركت من خلال حديث عمرو ان عبـد الله رجل كريم ، وهو اموى ربى فى منزل الخليفة عثمان ، ولكنهم أغروه بالتشيع لعلى ، ثم عاد الى ما كان عليه . واذكر انى رايته ليلة قبضوا عليه فاذا هو شاب فى مقتبل العمر واظنك سترتاحين اليه »

فظلت خولة ساكتة ، فحسب والدها سـكوتها قبولا فسكت ، وكانا قد فرغا من الطعـام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها وذهبت الى غرفتهـا وهى تفكر فيما سمعته من ابيها وتحسب نفسها فى حلم

▭

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيدا وحبها له فتقاذفتها الهموم، وهى تخاف ان يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل ان تعلم مصير سعيد ومهمته فى الكوفة ، وقد اعجبت بدهاء عبد الله لأنه باح بخبر المؤامرة على قتـل عمرو وكتم امر المؤامرة على معاوية ، ولكنها خافت الا تتم نبوءته فلا يأتى القاتل فى الاجل المعين فيقتله عمرو . وكانت اذا تصورت صـدق نبوءته ونجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عندذلك الى قبوله زوجا لها وهى تحب سعيدا ،

فهلجت اشجانها وارتبكت في امرها ، وجعلت تبحث عن سبيل تنجو به من هذا التردد فلم تر خيرا من الصبر والنزول على حكم القدر

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة خوفا على حياته ، وكان يخشى ان يتاخر المتعهد بقتل عمرو عن المجيء لسبب من الاسباب فيذهب سعيه عبثا

وظل عمرو اياما لايخرج للصلاة ، فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا ألما في بطنه فلم يخرج ، واتفق خروج خارجة بن ابي حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لايعلم بخبر المؤامرة ، ولم يامره عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه ، على انه لم يكن يحسب ان القاتل يأتي لقتله في الفجر وهو يصلي ، بل كان يحسب انه سيراقب خروجه في اثناء النهار في بعض شئونه . ولكن منية خارجة عاجلته فخرج فجر ذلك اليوم الى الجامع ليصلي بالناس ، ولم يكد يبدأ بها حتى هم به رجل من الوقوف وهو يحسبه ابن العاص فضربه بالسيف فقتله فقبضوا عليه وساقوه الى عمرو . فلما رآه عمرو بغت وصاح به : « ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن ابي حبيبة » . فاجابه الرجل بقلب لايهاب الموت : « والله اني كنت احسبه انت »

فقال له عمرو : « اردتني واراد الله خارجة . من انت يا غادر ؟ »

قال : « عمرو بن بكر » . قال : « وممن انت ؟ » . قال : « من تميم »

فقال : « اقتلوه » . فقتلوه ، وقد حزنوا لمقتل خارجة ولكن ما قدر كان

اما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع ان تسمع خبرا جديدا في اليوم التالي ولم تكن تتوقع ان يفعل الغادر فعلته في الفجر فاصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوها فأخبرها به ولسان حاله يقول : « لقد صحت اقوال عبد الله فتاهبي للاقتران به »

تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لانها لم تغادر بيت ابيها سرا قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة من ان سعيد يبادلها ودا بود ، فانها لما لقيته في الفسطاط لم تتحقق ميله اليها . فوقعت في حيرة ولكنها كانت مع هذا في قلق على الامام علي لاتدري هل نجا كما نجا عمرو ام ذهب فريسة ابن ملجم وتمنت لو ان عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين

□

تركنا سعيدا وبلالا في الكوفة وقد اخذ الاخير يتاهب للسفر الى الفسطاط ، واخذ سعيد يفكر فيما يفعل بعده وكان هو الذي امره بالذهاب الى الفسطاط ليعود اليه بالنبأ اليقين عن عمرو . ثم راى انه قد يطول به الانتظار ولا صبر له عليه . فقال لبلال : « كنت قد امرتك بالذهاب الى الفسطاط ، ولكني ارى

اجل عودتك بعيـدا فلهذا رايت ان اذهب الى دمشق لانتظرك بها ، على أن توافيني الى مسجدها بعد عشرين يوما ، وسواء اتمكنت من الفتك بقطام ام لا ، فانني سأعرف هناك مصير معاوية »

وسافر بلال ، وصبر سعيـد الى الغد ثم خرج قاصـدا بيت قطام فرآه مقفرا من أهله ، فوقف عند باب الحديقة يتأمل نخلاتها وطرقاتها ويفكر فيما مر به هناك من الاحداث وما انطلى عليه من مكر قطـام غير مرة ، وتذكر آخر مرة زارها فى ذلك المنزل ومعه ابن عمه عبدالله فازداد ميلا الى الانتقام منها . وفكر فى المكان الذى عسـاها ان تكون قد ذهبت اليه ، فخطر له ان تكون قد سارت الى اهلها فى جوار الكوفة ، فمضى للبحث عنها هناك ، ولـكنه لم يقف لها على أثر ، فمل البحث وخاف ان ينقضى الاجل الذى ضربه لبلال كيما يوافيه هذا فى دمشق ، ولاح له ان قطام قد تكون سـافرت الى دمشق لتلتجىء الى معاوية بعد ان نجحت فى قتل الامام على منافسه ، فحزم امره وقصـد الى دمشق على ناقة تسابق الرياح

اما قطام فكانت قد علمت من ريحان بقدومه فى الليلة التى وصل فيها الى الـكوفة ، اذ عاد اليها ريحان واخبرها بما دار بينه وبين بلال عبـد خولة ، وحكى لها ما فضحه هذا من سره وكيف كان سببا فى انكشاف امره لدى سعيد فلم يعد يصدقه ولم يرض المجيىء معه الى بيتهـا ، فحنقت على بلال وعلى سيدته خولة ، وشعرت مع كرهها لسعيد بالغيرة تأكل قلبها من اجل علاقته بخولة ، ولاسيما ان هذه كانت عونا على عرقلة مساعيها لقتـل الامام على ، فأضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيه من انتظـار الفتك بعلى . وكان ابن ملجـم بائتا عنـدها . فلمـا كان الفجر خرجت هى وعجوزها وعبدها ، وضربت قبتها فى المسجد كما تقدم . وفى ذلك من الجراة ما فيه ، ولم تكن تخشى كشف حيلتها لمـا دبرته من ارسالها لبـابة المحتالة بالصك بعد تغييره الى قنبر حاجب الامام

نجاة معاوية

قتــل الامام على ، ورأت قطــام انه قد قبض على ابن ملجــم كما توقعت فسارعت الى الفرار بعبدها وعجوزها الى مكان خارج الــكوفة ، وقد شفت حزازة صدرها بقتل الامام . ولكنها بقيت ناقمة على سعيــد وزادت نقمتها بعدما علمته من امر خولة، فعزمت على الذهاب الى الفسطاط، لتشي بها الى عمرو ابن العاص لاعتقادها انه لا بد مقدر لها ما انباته به عن سر اجتماع العلويين . ولم يخامرها شك فى نجاح وشــايتها بخولة ، لانها من انصــار على ، فيقتلها اذا كان هو قد سلم . اما اذا كان قد قتل، فانها لن تعجز عن تدبير حيلة اخرى. واستشارت لبابة فيما عن لها فاستحسنت رايها ، وحسنت لها المسير الى الفسطاط . واستشارت ريحان فقال لها : « انى فى ركابك ، اينما توجهت» . فاثنت على غيرته ، واصبحت فى اليوم التالى قاصــدة الفسطاط على ان تمر بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان . فاذا كان قد قتل ، فتحمل الخبر الى عمرو ، وتحرضه على طلب الخلافة لنفسه

فلما وصلت الى دمشق سمعت ان رجلا اسمه البرك بن عبد الله التميمى الصريمى ، قعد لمعاوية فى فجر ١٧ رمضان فى مسجد دمشق . فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف فى اليته . فلمــا اخذوه اليه قال له : « ان عندى خبرا اسرك به ، فهل ينفعنى ان انبئك به ؟ »

فقال له معاوية : « نعم »

قال : « ان اخا لى قتل عليا هذه الليلة »

فقال : « لعله لم يقدر على ذلك »

قال : « ان عليا ليس معه احد يحرسه . فلا بد ان يكون قد قتله »

فامر به معاوية فقتل ، ومضى هو يطبب جرحه

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الا الشخوص الى الفســطاط للايقاع بخولة

□

اما عبد الله فلبث فى ســجنه بمصر وقلبه واجف لمــا يخشى من حبوط

المؤامرة . وقد خطر له أن يحتاط لذلك ، فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليه الا يطلع احدا عليه لأنه اذا شاع وبلغ خبره المتآمر فقد يعدل خطتـــه ، فيقدم الميعاد أو يؤخره ، واقتنع عمرو بهذا ، فكتم امر المؤامرة عن كل الناس حتى صاحب شرطتـــه . أما أبو خولة فقد كان من اكثر النـــاس تقربا من عمرو ، واعظمهم غيرة عليه ، وكان عمرو يثق فيه ، على انه لولا رغبته فى معاتبتهعلى خيانة صهره ابن ملجم لما كشف له الامر

فلما كان ليل ١٧ رمضان أخذ القلق من عبد الله مأخذا عظيما لعلمـــه انه اصبح بين الحياة والموت . فلما كان الصباح وهو فى سجنه يطل من كوة ليرى او يسمع ما يجرى وصل الى اذنيه لغط لم يفهم منه شيئا صريحا ، فانتظر حتى جاءه الحارس بالطعام على عادته ، فعلم منه ماحدث ، فاطمـــأن . وبعد العشاء جاء احد رجال عمرو الى السجن فحل قيوده ودعاه الى مجلس الامير ، فمشى فى اثره وهو يرى نفســـه قد خرج بذلك من عداد الاموات . فقـــاده الرجل الى قاعةجلس فيها عمرو بن العاصعلى وسادة ، وفى يده درة (سوط) يلاعبها بين اصابعه ، وليس فى القاعة احد سواه . فلما اشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءه ودخل توا الى مجلس الامير وهم بتقبيل يده ، فأمسكه ابن العاص بيمينه وأجلسه الى جانبه وهو يقول بصوت منخفض : « لقد كانت نجاتنا على يدك فحق لك علينا التكريم ، ولكن وقع صاحب شرطتنا فى الشرك الذى كان منصوبا لنا ، ولوعلمنا الساعة او المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها ، أو لاطلعت خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسه ، ولكنى لا اظنه كان يستطيع ذلك وهو لايعلم الزمان والمكان المعينين »

فقال عبد الله : « ان حياتى كانت رهنا ببقاء الامر سرا ، ولو أنه شاع لغير الغادر خطته تأخيرا أو تقديما ، وكنت انا المقتول الآن بدلا من خارجه ، لانك كنت تسىء الظن بى فتقتلنى »

ولم يتم كلامه حتى دخل خادم يقول : « ان اباخولة بالباب» . فقال عمرو: « أدخلوه »

فدخل أبو خولة ولم يكن من مصـــاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو ، ولكنه نال الحظوة عنده عندما اطلعه على عزم ابن ملجم على قتل على . وظل يتردد على دار عمرو ويبذل وسعه فى خدمته حتى عده عمرو من أصحابه

فلما دخل أبو خولة القاعة حيى ، وقبـــل أن يجلس قال له عمرو : « أغلق الباب ، ومر الخدم ألا يأذنوا لأحد » . ففعل ودخل . فدعاه عمرو الى جانبه وعرف اليه عبد الله ، فأعجب أبوخولة به لأنه كانشابا جميلامع نباهة وذكاء ، وسر لما دبره عمرو من مصاهرته له . واما عبـــد الله فكان خالى الذهن من كل هذا

فلماجلس الثلاثة التفت عمرو الى عبدالله وقال له : « لقدعرفتك بصاحبنا أبى خولة ، وازيدك علما انه من أعز اصدقائى ، وقد كتمت أمر المؤامرة عن كل احد سواه ، ولكننى اشترطت عليه شرطا اظنه يعود عليك بالمنفعة ، وقد فعلته مكافأة لك على خدمتك لى »

فوقف عبد الله متأدبا وقال : « اياذن لى مولاى فى كلمة ؟ »

قال : « قل » . قال : « لاتحسبن أيها الامير أن لى فضلا بما بحت لك به ، فانى والحق يقال انما فعلته استبقاء لحياتى ، فلاتظننى أخدعك أواخدع نفسى »

فاعجب عمرو بصراحة عبد الله وقال له : « لم تزدنى بما قلت الا رغبة فى مكافأتك ، ان ابن العاص لايجهل قدر الرجال وليس من السذاجة بحيث لايدرك انك لو لم تقع فى يده وتشعر بالخطر على حياتك وبألا نجاة لك بغير افشاء ذلك السر ، ما أقدمت عليه . ولكنى مع كل ذلك أقدر جميلك ، واريد مكافأتك . وقد رأيت من صدق قولك ما أكد لى انك لو كنت من أنصارنا لكان لنا بك نعم النصير ، وأنت أموى على ما علمت فليس تشيعك للعلويين معقولا » . قال ذلك وفى صوته غنة استفهام كانه يستفهم عن سبب تشيعه فسكت عبد الله . فقال عمرو : « ولكنك لم تسألنى عن المكافأة التى اعددتها لك »

قال : « قلت انى لا استحق مكافأة »

قال عمرو : « أمتزوج أنت ؟ »

قال : « كلا يا مولاى »

قال : « اذن فاعلم ان فى الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها اهل هذه المدينة ، وهى ابنة صاحبى هذا (واشار الى ابى خولة) . ولا أخفى عليك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم ، وهو أحد المتآمرين على قتلى وقتل على بن أبى طالب ، ولا ندرى ما كان من أمره اليوم فانه الموعد المضروب »

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبد الله ما كان قادما من اجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فانقبضت نفسه ولكنه تجلد وصبر الى آخر الحديث

فأتم عمرو كلامه قائلا : « ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم ، على ان يتزوجها بعد عودته من الكوفة ، ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالما بتواطؤ عمرو ابن بكر على قتلى فكتم ذلك ، وسار ولم يطلعنى على شىء منه ، ولهذا عددته شريكا فى قتلى ، فحرمته من خولة ، ولى دالة على ابيها لانها بمنزلة ابنتى ، وقد خطبتها لك منه ، ومتى رأيتها تحققت ان قد ازوجناك زهرة الفسطاط وخير بناتها » . ثم التفت عمرو الى ابى خولة وقال : « ولا تظننا فرطنا فى خولة ، فان هذا الشاب من سلالة الامراء ، ويكفى انه أموى وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب . أما الخائن ابن ملجم فان عاد الينا فلا أبقانى الله ان ابقيته حيا . ولكننى لا أظنه الا مقتولا فى دار ابن ابى طالب فاز فى مهمته أم لم يفز » .

قال ذلك والغضب باد على وجهه ، فعزح عبد الله بما ناله من الحظوة فى عينى عمرو ، وارتاح لما سمعه عن خولة ، ولكنه بقى قلقا على ابن عمه سعيد ، وما كان من امره بعد ان فارقه فى مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثته نفسه ان يسأل عمرا عنه مخافة أن يكون وقع فى أيدى رجاله ، ولكنه لبث ساكتا يتردد ، وقد نسى اقتراح عمرو . فظنه عمرو غير راض فقال : « ما بالك لم تجب ؟ لعلك لم ترض بخولة ، والله انى ارضاها لأعز ابنائى »

فابتدره عبد الله قائلا : « عفوك يامولانا ، كيف لا ارضى بما رضيته انت لى ؟ وما سكوتى الا لأنى حسبت اقتراح الامير امرا نافذا لاخيرة لى فيه ، على انى ارجو ان تسألها هى رايها فى الزواج بغريب مثلى »

فقال ابو خولة : « ان خولة جارية مولانا الامير ، وما يرضاه لها لامندوحة لها عنه ، وانا وهى طوع ارادته »

واستولى السكون عليهم لحظة ، ثم التفت عمرو الى عبد الله فقال : «كنت اظنكما اثنين جئتما معا الى الفسطاط ، ولكننى لم ار سواك »

فاضطرب عبد الله ، ونظر الى عمرو وقال : « هذا هو الامر الذى شغل بالى فى اثناء حديث مولاى . ان رفيقى هو ابن عمى ، وقد جئنا معا الى هذه المدينة ولكنى يممت عين شمس وحدى وتركته فى المسجد على ان استطلع المكان واعود اليه ، فقبضوا على ولم اعد اعرف شيئا عنه الى الآن . فهل عثر الشرطة به فقتلوه ؟ »

قال عمرو : « لم اسمع عنه شيئا ، ولا اخبرنى احد بخبره ، فقد يكون نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم فى ذلك الاجتماع »

فهدأ روع عبد الله ، ولكنه ظل مشتاقا لاستطلاع حال سعيد وتمنى ان يسير توا الى الكوفة فيستطلع كل شىء ويتحقق ما وقع للامام على ، ولكنه خجل من ابداء رايه هذا لعمرو ، ورأى ان يتظاهر بالرغبة فى السفر للبحث عن ابن عمه فقال : « لقد اوضحت لمولاى ما انا فيه من القلق على ابن عمى هذا ، فهل يأذن لى الامير بالذهاب الى الكوفة لأستطلع حاله ثم اعود ، واكون فى خدمتك الى الممات فقد اوليتنى جميلا لا انساه ؟ »

قال عمرو : « يكون ذلك بعد عقد قرانك بخولة ، حتى اذا صرت من أصهارنا ، كان لك ان تسير الى حيث شئت »

وكان عمرو لدهائه وحسن سياسته قد أدرك ان رجلا حرا صادقا مثل عبد الله لايفرط فيه . لانه اذا اخلص الخدمة كان نفعه عظيما . فلم ير لكى يقيده خيرا من ان يبادئه بالجميل ، وان يزوجه ابنة صاحبه وهو يحسب خولة على دعوته فتحبب اليه الرجوع الى حزب الامويين . ولم يكن يعلم آنئذ هل نجح ابن ملجم فى مهمته بالكوفة ام لا . فلما اقترح على عبد الله عقد قرانه قبل السفر ، قبل عبد الله واطاع ، فضرب عمرو اجلا لذلك وقال :

« تقيم عندنا فى أثناء ذلك ضيفا كريما ، فاذا آن الزمن عقـدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك »

فوقف عبد الله بين يدى عمرو يهم بتقبيل يده وقال : « لقد غمرنى فضلك ولست بمستطيع أن أفى يدك على حقها » . واستأذن فى الخروج فأذن له

وخرج ابو خولة أيضا وهو يكاد يطير فرحا لما رأى من خلق عمرو . وسره الخطيب الجديد لابنته ، فسـار توا الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل جمر الغضـا تتقاذفها الهواجس بعـد أن تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضه من زواجها بعبد الله . بينما هى تؤثر البقاء على حب سعيد وهو أول من وقع فى نفسها مع عدم نفورها من عبد الله ، فلما كان المساء وأبطأ أبوها فى العودة الى البيت قلقت ولبثت تنتظره بفارغ الصبر لعلمها انه لابد من مروره بعمرو على أثر ماكان من نجاته فى ذلك اليوم. وحسبت لابطائه ألف حساب. واخوف ماخافته من ذلك الابطاء أن يكون سببه البحث فى امرها وأمر عبد الله وهى لاتريد ذلك

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب فأسرعت دقات قلبها وعلت وجهها صفرة الوجل، وظلت مستلقية على الوسادة فى حجرتها ، وما لبث باب الدار أن فتح. فاتجه أبوها توا الى غرفتها فقرع الباب فنهضت لتفتح له وركبتاها تصطكان من الاضطراب. فدخل والمصباح فى يده فوضعه على مسرجة وجلس اليها وعلى محياه امارات البشر والسرور ، وهو يحسب أن قد جاءها ببشرى عظيمـة . فرآها مضـطربة الحواس قلقة الخاطر رغم تجلدها ، فقال لها : « ما بالك يا بنية ما الذى أزعجك ؟ »

قالت : « لم يزعجنى شىء ، ولكننى قلقت لغيابك وانا وحدى فى هذا البيت لا ارى فيه احدا غير الخدم »

قال وهو يبتسم : « لقد دنا الوقت فلن تكونى وحدك بعد الآن »

فتجاهلت مراده وقالت : « يظهر انك علمت بما أقاسيه من الوحدة فعزمت على ألا تتركنى وحدى ؟ »

فضحك لسذاجتها وقال لها : « ليس هذا قصدى ياخولة ، ولكننى أذكرك باقتراح الامير الذى اطلعتك عليه منـذ بضعة أيام ، فانه قد تم اليوم بعد أن صدق قول عبد الله الاموى ، فجمعنى عمرو به الليلة فى داره ، فرأيته شـابا جميلا عليه مهابة الامراء ، تتجلى الشجاعة والانفة فى وجهه . ويكفى أن الامير سحر به وبالغ فى اطرائه امامى. فهذا هو خطيبك ومتى عقد قرانكما لاتكونين وحدك »

ولم يتم كلامه حتى صبغ وجهها حمرة الخجل وظلت صامتة ، ثم أخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهى مطرقة لاتفوه بكلمة

ولم يكن الخجل وحده سبب اضطرابها كما ظن أبوها ، ولكنها أصبحت كريشة فى مهب الريح حائرة بين ان تطيع عواطفها وبين ان تطيع اباها وأميرها . ولو أنها لم تبعث الى سعيد مع بلال بخبر حبها له لكانت المعضلة أيسر ، وقد علمت أنها اذا رفضت عبد الله رفضا باتا تغضب عمرا وأباها . وهى مع ذلك لاتدرى مصير سعيد ولا ما آلت اليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال ، ولم تر فرجا الا بالاصطبار فصبرت حتى يعيد أبوها السؤال فتستمهله

أما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل ، وهو أمر عادى فى الفتيات فى مثل هذه الحال . فوضع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها : « لا تخجلى يا بنية ، ان اباك هو الذى يخاطبك ، وقد تم الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا لو تعلمين »

فأجابت وهى مطرقة وقالت : « وهل ضرب لذلك أجلا ؟ »

قال : « لقد ضرب أجلا لذلك أسبوعا »

قالت : « فليكن ثلاثة أسابيع »

قال : « وما الداعى الى هذا التأجيل فانى اخشى ان يغضب عمرو فاطيعينى وعلى تبعة ذلك . فان عبد الله فتى قلما يجود الزمان بمثله ، وانى بمصاهرته لفخور فلا محل للاعتراض » . قال ذلك وفى كلامه شىء من الخشونة على عادته معها إذا أصر على أمر . فخافت سوء العقبى اذا جادلته فسكتت وأظهرت الارتياح . فلما رآها هكذا قال لها : « بورك فيك يا بنية ، بعد أسبوع تتم معدات الزواج »

فظلت مطرقة وقد عولت على اتخاذ وسيلة اخرى للتأجيل

اما عبد الله فأخـذ فى البحث عن بيت يقيم به ، وبينما هو فى ذلك جاءه بعض رجـال عمرو واخبروه بأن الامير قد أمرهم بأن يعدوا له منزلا فى داره ضيفا عليه . فازداد عبد الله اعترافا بجميل عمرو ، وفرح لأنه غريب لايدرى أين يذهب . وتبـع الرجل الذى كلمه الى غرفة فيها فراش وغطـاء وبعض الآنية ، وسأله الرجل : « هل تحتاج الى طعام ؟ » . فاعتذر وسـار توا الى فراشه

ولما خلا بنفسه جعل يفكر فى نجاته وصورة ابن عمه سعيد عالقة بذهنه لاتبرح ذهنه . على انه اطمأن على حياته ، واحب أن يتم ما أتى الفسـطاط لأجله ويعلم ماحدث للامام على

وكانت ذكرى خولة تعترض تصوراته واشـتاق رؤيتها والتحدث اليها ، وقضى ليله هكذا

ولما اصبح سار الى المسجد فصلى وهو يتوقع أن يرى أبا خولة لعله يدعوه الى منزله فيتيسر له رؤية خولة ولو خلسة . وكان أبو خولة قد مر بالجامع فى ذلك الصباح عمدا ، فلقيه فسلم عليه ودعاه الى العشاء فقال له : « انى فى ضيافة الامير ولا يليق بى قبول الدعوة الا بعد استئذانه »

فقال : « أنا استأذنه عنك »

قال : « حسنا » . وافترقا . فمشى عبد الله فى طرق الفسطاط واسواقها ، فمر ببيت خولة وهو لايعرفه. وكانت خولة قد اصبحت فى ذلك اليوم مضطربة قلقة ، فخرجت تمشى فى الدار فوقع نظرها على عبد الله وهو مار ، ولم تكن رأته من قبل ، ولكنها استنتجت من لباسه وقيافته وشبهه سعيـدا انه هو عبد الله خطيبها ، فاختلج قلبها فى صدرها ونفرت لأول وهلة ، ولكنها ارادت أن تتبين حاله فتفرست فيه وهو ماش فرأته معتـدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته سعيدا ولكنها ما لبثت أن نفرت منه لما تذكرت انه سيحرمها من حبيبهـا وما زالت تتبعه بنظرها حتى توارى ولم ينتبه

وعادت خولة الى غرفتها منقبضة النفس، وقضت نهارها لم تذق طعاما . ولما كان الغروب آن موعد مجيء أبيها ، وكان الخدم قد أعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لاتدرى . وما عتم أن دخل الدار ، وسعل على عادته كأنه ينبه اهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها الى قدومه ولكنها تمارضت ومالبثت أن رأت معه شابا عرفت انه عبدالله فخفق قلبها وسادها الاضطراب، وتوارت فى حجرتها

▭

وأما أبوها فذهب بضيفه الى قاعة الضيوف ، وأجلسه هناك ، وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش، وقد امتقع لونها فنحفزت للنهوض وهى تتظاهر بالضعف . فقال : « ما بالك ياخولة ؟ »

قالت : « لا شيء ، غير انى أشعر بانحطاط فى قواى لا أدرى سببه »

فدنا منها وهمس فى اذنها قائلا : « شددى عزمك فقد جاءنا ضيف عزيز »

فأجابت متجاهلة : « مالى وللضيوف ؟ انى لا استطيع النهوض لمقابلة الضيوف »

قال : « ان الضيف اصبح من انسبائنا ولا بأس من رؤيته نزولا على امر الامير عمرو بن العاص »

فقالت : « ولكننى منحطة القوى . دعنى الآن وسأراه فى فرصة اخرى وأنا فى عافية ان شاء الله »

قال : « لقد كنت اظنك أكثر رغبة منى فى رؤيته بعد ان ابلغتك امر خطبتك له ، أيليق بنا الآن أن نظهر له الجفاء »

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهى تخشى غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وحمقه ، فظلت صامتة

فأمسك بيدها وانهضها ، فوقفت مرغمة وسارت معه مطرقة ، فلما وصلا الى باب الغرفة وقف وقال لها : « ضعى خمارك على راسك وتسجعى واستقبلى الرجل بما يليق بامثالك ، لئلا يبلغ عمرا عنا مايدل على عصيان امره فيغضب»

فرأت خولة من الحكمة أن تتجلد وتصبر اشفاقا من غضب ابيها ، فخفت الى خمارها فوضعته على راسها وأصلحت هندامها وخرجت فى اثر ابيها حتى دخلا على عبد الله

وكان عبد الله قد استبطأ مجيئها فحمله على محمل الخفر والدلال ، وازداد شوقا الى رؤيتها ولو الماما . فلما اشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انشرح قلبه وحمد الله على توفيقه بعد نجاته من الموت . فدخلت وحيت بما يجدر بمثلها فى مثل هذا المقام ، وجلست على وسادة بجانب ابيها

وكان عبد الله يسارقها اللحظ فلا يزداد الا اعجابا بها ، ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها ووقعت من نفسه موقعا ساميا لما آنسه من جمالها وذكائها وتعقلها في اثناء الحديث مما يندر مثله في امثالها من ربات الخدور . فخرج مأخوذا بخولة

□

قضى عبد الله بقيـة الاسبوع في مثـل ذلك ، وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقا بها . ولما ازف يوم الزفاف دعاه عمرو اليه وقال : « اريد ان اعقد لك عليها في داري ، وتقيما عندنا حتى يتراءى لـكما غير ذلك » . فعل عمرو ذلك التماسا لما عزم عليه من كسب عبد الله الى حزبه ، فشكر له عبـد الله ، ولما حل الميعاد زفت خولة الى عبد الله ، وعقد قرانه بها على العـادة المتبعة ، وعبـد الله مفعم سرورا بهـذا النصيب ، ولولا ما يجول في خاطره من القلق لغياب سعيد والخوف على الامام على لكان اسـعد خلق الله لانه راى في خولة ما طالما تاقت اليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء

فلما انفض حفل العرس دخل العروسان الى مخدعهما

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فامسك النقاب ورفعه فاعادته الى ما كان عليه ، فظنها تداعبه فضحك وقال لهـا : « يلوح لي انك لا تحبين عبد الله ؟ »

قالت وهي مطرقة : « يعلم الله اني لا اكرهه »

فمد يده الى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته . فتحير في امره ، وامسك يدها وقال بلهجة الجد ونغمـة المحب العاتب : « ما بال خولة تمنعنا مما احله الله ودعانا اليه القلب ؟ »

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه واسـندت ظهرها الى الحائط تبالغ في غطاء النقاب مطرقة ولم تحر جوابا

فاستغرب عبد الله سكوتها وتمنعها وظن في الامر خديعة ، فاظهر الجد وهو لايزال قابضا على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها : « ما الذي اراه ياخولة ؟ ما الذي تحدثك به نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك خفرا فهو غلو لا محل له وقد عقد قراننا بحضور امير مصر ونخبة الاعيـان والامراء . وان كنت قد اكرهت على القبول وانت تحبين غيري فقولي »

فلما قال ذلك رفعت راسـها اليه ، وجذبت يدها من يده بلطف وقالت : « نعم اني احب غيرك ، ولـكنني قلت لك اني لا اكرهك بل احبك محبـة الاخ لا محبة الزوج »

فبغت عبد الله وعلته الدهشة ، وكاد الغضب يغلب عليـه لو لم يتجـلد ليعرف جلية الامر . فنظر اليهـا غاضـبا وقال : « لقد رايت منك العجب ،

واعجب منه احتقارك اياى مما لم أكن أتوقعه بعد عصبتك هلا كشفت عن السبب ؟ »

فأمسكت النقابُ وازاحته عن وجهها وقالت : « انى لا ارى الحجاب واحد بينى وبينك ، و لاأنا خائفة من اطلاعك على ما فى ضميرى . ولكننى اسأل سؤالا اذا اجبتنى عنه بحت لك بسرى »

فقال : « اسألى فانى مجيبك »

قالت : « كيف رضيت عقد قرانك وابن عمك غائب ؟ »

فقال : « وأى ابن عم تعنين ؟ »

قالت : « أعنى ابن عمك سعيدا الذى جئت معه الى الفسطاط ، الا يهمك أن تعرف ما آلت اليه حاله ؟ »

فاستغرب ذلك منها ، ولم يكن يعلم اطلاعها على شىء من ذلك فقال : « من أين لك أن تعرفى ابن عمى وما جئت من اجله الى الفسطاط ؟ »

فتنهدت وقالت : « عرفته بقدر من الله ، وانى أعجب من نسيانك تلك المهمة التى جئتما من أجلها . هل تظن الامام عليا نجا من القتل ؟ »

فازداد عبد الله استغرابا ، ونسى ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به اشجانه ، وتذكر ابن عمه فقال : « لقد أذهلتنى ياخولة بما سمعته منك ، فافصحى عما فى ضميرك وأخبرينى كيف عرفت ابن عمى وما العلاقة بينه وبين تمنعك الليلة ؟ »

قالت : « اتعدنى بالكتمان وحفظ الذمام ؟ »

قال : « نعم أعدك وعدا صادقا ، فافصحى فليس لى صبر على هذه الرموز »

فتنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل ، وهمت بالكلام فارتج عليها ، وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها صامتا ، فلما لم يسمع منها شيئا . قال لها : « بالله لاتطيلى السكوت فقد نفد صبرى ، قولى مابدا لك وفرجى كربتى »

قالت : « أقول ولاأخشى لوما انى أحببت سعيدا قبل أن أراك ، وهو أحبنى على ما أظن ، وحبنا قائم على اشتراكنا فى الدود عن الامام على ما استطعنا . وقد ذهب سعيد ضحى الليلة التى أغرق فيها عمرو أصحاب عين شمس ، وهو يظنك فى جملة الغرقى . ولا اظنه اذا عرف بقاءك حيا الا طائرا اليك من الفرح » . وقصت عليه حديثها مع سعيد من أوله الى آخره

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبد الله ، وخيل اليه انه فى حلم ، ولما تحقق أن خولة تحب سعيدا وثابتة على حبه ، أحس لساعته انه لم يبق له حق فيها . وازدادت رفعة فى عينيه فقال لها : « اعلمى ياخولة انى اعدك أختا لى من هذه الساعة ، وانى سأبذل جهدى فى جمعك

بسعيد فانه بمنزلة اخي . وقد اوصيت بكفالته وصية مقدسة ، وقد احسنت انت بما بسطته من حقيقة حالك ، وعلى هذا سأسافر غدا الى الكوفة ، لابحث عنه واستطلع ماجرى للامام على »

فابتدرته خولة قائلة : « لا تعجل ياعبد الله فى ذهابك ، لاننا لانلبث بعد قليل ان نسمع الخبر من عبدى بلال الذى رافق سعيدا الى الكوفة ، فقد اوصيته بالعودة حالا واظنه يصل الينا بعد ايام . واما الآن فاكتم مادار بيننا واجعل كأنك زوجى ريثما نرى مايكون »

فالتفت عبد الله اليها وقد ازداد اعجابا بحميتها وثبات جأشها ، وقال : « انى اهنىء أخى سعيدا بمثلك ، وارجوان يكون قد نجا من مكايد الغادرين» . وقد اراد بذلك قطام ، فانه ما زال يسيء الظن بها وقد أدرك انها هى التى وشت بهما الى عمرو بن العاص

فقالت : « انى اتوقع رجوع بلال لأسمع منه ما آلت اليه حال الامام على ومعاوية ، هل نجا احدمنهما . اما عمرو فقد نجا والفضل فى ذلك راجع اليك»

فقال : « ولكننى انما بحت بذلك لعمرو فرارا من الهلاك ، ولم أذكر له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث اليه بمن يحذره فينجو »

قالت : « انى لم الملك قط . فهذه مشيئة الله . فالآن لابد من الصبر فامض الى فراشك وانا أفترش هذا البساط »

قال : « لا والله انك لاتبيتين الا على الفراش وانا اولى بهذا البساط »

وباتا تلك الليلة ، وقد سرت خولة بنجاتها مما كانت تخشاه . واما عبدالله فانه بات معجبا بخولة كل الاعجاب وقد أسف لحرمانه منها بعد ان عرف فيها هذه الخصال . ولكنه فرح لأنها ستكون من نصيب سعيد

واصبحا فى اليوم التالى والناس لايعلمون الا انهما زوج وزوجة ، وظلا مقيمين فى دارالامير حتى قدرت خولة دنوالوقت الذى كانت تتوقع رجوع بلال فيه، فاستاذنت فى المضى الى بيت ابيها مخافة ان يأتى بلال فى اثناء غيابها فيطرده ابوها او يتهدده فلا يراها هناك فيعود من حيث أتى

فوافقها عبد الله على ذلك ، واستأذنا عمرا فى الذهاب الى بيت ابيها فأذن لهما فاستقبلهما ابوها بالترحاب

□

ولم يمض يومان على مكثهما فى بيت خولة حتى قدم بلال ، وكان وصوله الى الفسطاط فى اثناء النهار ، وابو خولة فى حانوته ، وكان بلال قد دخل الفسطاط متنكرا فمر بحانوت سيده ونظر اليه خلسة فلما وجده هناك هرول الى البيت ودخل توا الى غرفة سيدته بلا استئذان ، فوجد عندها

شابا لايعرفه ، ورآهابجانبه كأنها جالسة الى شقيق أو قرين . فبغت لذلك ولكنه أخذ بما آنسه من ترحابها به فقالت له : « اغلق الباب وادخل» . ففعل ودنا منها وهو ينظر الى عبد الله شزرا . فادركت خولة ما يجول فى خاطره فقالت له : « لاتسىء الظن ، ان هذا أخى بعهد الله فاقصص علينا خبرك ، وقل لنا بادىء ذى بدء كيف فارقت الامام عليا ؟ »

فسكت ولم يجب ، فألحت عليه وقد ذهلت ، فأجابها بصوت مختنق : « ان عليا ذهب ضحية الغدر »

فدقت خولة يدا بيد وصاحت : « وا لهفى عليك يا أبا الحسن » . وقال عبد الله مثل ذلك . ثم قالت : « وماذا جرى لابن ملجم ؟ » . قال : « انه قتل شر قتلة وأحرق بالنار لعنه الله »

فقال عبد الله : « وكيف فارقت سعيدا ؟ »

قال : « فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة »

قال عبد الله : « أو تعنى قطام ؟ »

قال : « نعم ، وما أدراك ، انى اعنيها ؟ وكيف عرفتها ؟ »

قالت خولة : « ألم تعلم من هذا ؟ » . قال : « كلا »

قال : « ألم يذكر سعيد أمامك انه فقد ابن عمه هنا »

قال : « بلى » . قالت : « هذا هو عبد الله ابن عمه »

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح : « انت حى يامولاى ؟ من لى بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك ؟ . والله انى حاملها اليه الساعة بعد ان أسر الى سيدتى كلاما اؤتمنت عليه »

فالتفتت اليه وقالت : « قل يا بلال ، ليس على عبد الله سر ، فهو أخى كما قلت لك . قل كيف فارقت سعيدا ؟ »

قال : « فارقته يامولاتى وهومشتاق لرؤيتك ، ولم يأت معى خافة ان يكون عمرو قد نجا من المكيدة فلا يأمن على حياته . وقدعلمت وانا مار فى الفسطاط الساعة انه نجا وقتل غيره خطأ ، ولا أدرى كيف حال سيدى معك فلا آمن عليكما منه »

قالت : « اعلم يا بلال ان ابن العاص تقم على ابن ملجم ورضى عنى ، وهو يحبنى حبه لاولاده . وهو لايعرف سعيدا ولا أبى رآه ، فاذا جاء لم يكن عليه بأس وشأنه فى الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام على وكيف قتله »

ثم أمرته بالجلوس فجلس متأدبا وقص عليهما الخبر . فلما بلغ الى حديث قطام وما أرادته من قتل سعيد هاجت فى نفسها الغيرة والانتقام وقالت :

« قبح الله هذه المراة ، انى اعرفها واسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتهـا على سعيد ؟ »

فابتدرها عبد الله قائلا : « انى والله توسمت فيهـا الشر عنـدما رايتها » وقص عليها ماكان من امره معها ، فانكشفت لهما الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ، ولكنهما حزنا على مقتل الامام على ، ثم استدركت فى حديثها فقالت : « وهل سمعت شيئا عن معاوية ؟ »

قال : « لقد مررت بدمشق فى طريقى فعلمت انه نجا أيضا . وقص عليها خبره كما سمعه فعجبت لاحكام القضاء كيف تسمح بقتـل على وتبقى على معاوية وعمرو ، ثم قال عبد الله : « واين سعيد الآن ؟ »

قال : « هو فى انتظارى بدمشق ، فاذا امرت مولاتى عدت اليه حالا وجئت به على عجل ، وأرجو أن يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها ، واذا لم يظفر هو بها فلست انا بتاركها حتى أنتقم منها لما ارتكبته من الاجرام »

قالت خولة : « بورك فيك يابلال ، فاذهب الآن وأت بسعيد على عجل »

فقال : « وهل آتى به الى بيتك هنا ؟ »

فاستصوبت خولة سؤاله ، لان مجيئه الى بيت ابيها يعقد الامور ، فنظرت الى عبد الله كأنها تستفتيه فى الامر فاشار اليها بأنه يريد البحث معها فى ذلك سرا

فالتفتت الى بلال وقالت : « اخرج الآن قبل أن يأتى أبى وهو ناقم عليك ، لاعتقاده انك فررت بالجملين من داره ، وانتظر عبد الله فى المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعل »

العزم على الكوفة

خرج بلال وبقى عبد الله وخولة على انفراد فقالت خولة : « وما العمل يا عبد الله ؟ اخاف اذا جاء سعيد واردنا الطلاق ان ينفتح علينا باب للأخذ والرد ونحن نود كتمان الامر فما الرأى ؟ »

قال : « ارى ان نلتمس من عمرو الاذن بالخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة ، فقد كنت طلبت منه ذلك فأخرنى الى ما بعد عقد القران . فهم لايعرفون الآن الا انك امراتى ، والرجل يذهب بامراته حيث شاء . فاذا سرنا الى الكوفة وأوصينا بلالا بأن يوافينا بسعيد الى هناك عقدنا قرانكما هناك ، ولا رقيب علينا ولا واش . واذا طاب لنا ان نعود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نقيم بالكوفة الى ما شاء الله »

فصمتت خولة برهة تفكر فى الامر ، فرات عبد الله مصيبا فقالت : « نعم الراى رايك ، ولكننى اعتدت الحياة فى الفسطاط والفت الاقامة بواديها ولى فيه الاهل والاصدقاء ، فاذا اتيح لى البقاء فيها كان أولى وابقى »

قال : « لا انكر ذلك ، وهو ميسور لك فيما بعد ، واما الآن فلا ارى خيرا من الذهاب الى الكوفة »

قالت : « واخشى الا يأذن ابى فى ذهابنا الى الكوفة فهو يريدنى ابدا بقربه ، وليس له سواى فلا اخاله يرضى بغير اقامتنا هنا »

قال : « نحتال ونتملقه حتى يأذن لنا ولو بعد حين ، ونوصى بلالا بأن يخبر سعيدا ان يبقى بانتظارنا حتى نأتيه »

قالت : « افعل ما بدالك وعلى الله التوفيق »

قال : « فلنعد الآن الى دار الامير ، فان خروجنا من عنده اسهل ، لانه هو الذى وعدنى باخلاء سبيلى للبحث عن ابن عمى سعيد ، فاذكره بوعده ولا اظنه يمنعنا من السفر »

قالت : « نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير »

قال : « حسنا » . فلما كان العصر خرج الى المسجد ، فوجد بلالا فى انتظاره فاوصاه بان يذهب بسعيد الى الكوفة ويبقى بها حتى يأتيا اليه ، فسر بلال وابتسم وقال : « هذا ماكنت ارجوه من مولاى ، لانى اقدر على الانتقام من قطام اللعينة اذا كنت بالكوفة »

فضحك عبد الله وقال : « واوصيك اذا انت ظفرت بها بألا تعفوعن عجوزها لبابة فانها شر منها »

▭

ولما راى عبد الله نفسه بباب المسجد ، والصلاة قائمة والناس يدخلون افواجا ، دخل مع الداخلين . فراى ابن العاص على المنبر يعظ الناس وهم صامتون ، فوقف حتى انتهى عمرو من خطبته وانفضت الصلاة، فهم بالخروج. ولم يكد يبارح صحن المسجد حتى اعترضه بعض الشرطة قائلا : « تمهل يامولاى ان الامير يستوقفك لامر يريد ان يخاطبك فى شانه » .

فقال : « واين الامير ؟ »

قال : « كان فى المسجد ، وقد ذهب الآن الى داره من باب فى المحراب »

قال : « وهل يريد مقابلتى الآن ؟ » . قال : « نعم »

فاضطرب عبد الله وخاف ان يكون قد وشى به احد ممن اطلعوا على مهمته فى الفسطاط ، ومشى حتى اقبل على مجلس عمرو ، وكان اذا وصل الى المجلس دخل بلا استئذان . فلما هم بالدخول اعترضه الحاجب قائلا : « تمهل حتى نستاذن لك » . فوقف عبد الله ودخل الحاجب ثم عاد فقال : « ان الامير يريد الخلوة بك هذه الليلة ، فاذا اتيت فى العشاء تعال وحدك »

فاستغرب عبد الله ذلك الشرط ، واشكل عليه المراد منه ، فاستزاد الحاجب ايضاحا وسأله : « هل المراد ان آتى وحدى من غير خولة ؟ »

قال : « اظن هذا هو مراده ، فانه قال : (ليات وحده لكلام سألقيه اليه على انفراد) . »

فعظم الامر على عبد الله وحسب لذلك الف حساب . ولم تكن الشمس قدمالت الى الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه علامات القلق ، فلما اقبل على خولة ورات على وجهه آيات الاضطراب ابتدرته قائلة : « ما بالك ياعبد الله ؟ ماذا اصابك ؟ انى ارى فى وجهك قلقا ، قل رعاك الله ما اوجب ذلك ؟ »

قال : « ليس هناك ما يوجب القلق » . واعتذر وابهم فلم تقنع ، ولكنها سكتت على ان تستطلع السر بلباقة بعد قليل . فقالت : وهل رايت بلالا ؟ »

قال : « نعم وقد اوصيته بما يقوله لسعيد »

قالت : « وهل سافر ؟ »

قال : « اظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويرحل فى الغد مبكرا »

وفيما هما يتحادثان جاء ابوها والغضب باد عليه وكانت خولة تعرف حاله تو النظر اليـــه . فلما رأته هــكذا ازداد اضــطرابها وجعلت تفكر فى غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تجد سببا لذلك. ولم تجسر على سؤال والدها ؛ ولم ترد أن تلح على عبد الله فتركت ذلك الى الاختلاء به

وبعد قليل حضر الطعام فجلسوا اليه وليس فيهم من يتكلم الا تفضلا

فلما انتهى عبد الله من طعامه نهض وقال لخولة ولأبيهـــا : « انى ذاهب فى حاجة تقتضى غيابى ساعة » . وكان قوله جاء طبق ما يرجوه ابو خولة ، فلم يسأله عن سبب ذهابه ولم يطلب منه التعجيل بالعودة

فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة ، ولم يخطر لها ان لذهاب عبد الله علاقة بما بدا لها فى وجهه من الانقباض . ولكنها رافقته الى باب الدار وتوسلت اليه الا يطيل الغياب . فاجابها بانه لايدرى متى يعود ، ولم يشـــأ ان يبوح لهـــا بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة للاستفهام ، فودعهـــا وخرج وهو يسرع فى مشيته ، وافكاره تائهة فيما عسى أن يكون غرض عمرو من دعوته اليه فى مثل هذا الوقت

ولما وصل الى دار عمرو خفق قلبه مخافة ان يسمع من الحاجب خبرا جديدا يزيد بلباله فلم يزد الحاجب على قوله : « ان الامير فى انتظارك فى غرفته »

فمشى عبد الله يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، حتى وصل الى البـــاب فاذا هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحه فسمع خطوات تسرع نحو الباب يتخللهـــا همس لم يفهم منه شيئا . وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمرو نفسه يفتحه بيده ، فبغت لما رآه امام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب. فحياه عبد الله فلم يرد عمرو على قوله : « وعليكم السلام » . وسار الى صدر الغرفة فتبعه عبد الله وهو ينظر الى جوانب المـكان لعله يرى أحدا . فلم يجد . فالتبس عليه الامر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجا . ولكنه رأى فى جدار من جدران الغرفة بابا عليه ستار والباب يستطرق الى غرفة اخرى فظن ان احدى نسائه كانت عنده فلما علم بقدومه صرفها من الباب الآخر واستقبله . وظل يفكر فى ذلك وهو ماش فى اثر عمرو . فلما جلس هذا على مقعده وقف عبد الله بين يديه ينتظر أمره بالجلوس ، فاشار اليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر ما يقوله وقد نفد صبره

سكت عمرو لحظة وهو يعبث بدرة (سوط) كانه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنـــه ، ففتح عبد الله الحديث قائلا : « كيف حال مولاى الامير ، وما الذى يأمر به عبده فقد لبيت دعوته وانا راج أن يكلفنى امرا اقوم بقضـــائه جزاء لبعض ماله من اليد على ؟ »

فالتفت اليه عمرو وهو يمشط لحيته وقال : « انما دعوتك لاسالك سؤالا واحدا ، وارجو ان تصدقنى الجواب بما احسبنى اجزلته لك من الجميـــل

وابقيت عليك بعد ان رايت الموت رای العين »

فوقف عبد الله احتراما وقال : « يعلم الله انى لا انسى جميـــلا أوليتنى اياه ، باغضائك عن جريمة اقترفتها ، ثم بانعامك على بحياتى وهى خيرهبة ، فكيف لا اصدقك القول ؟ » . قال ذلك وقلبه يخفق خوفا من ســماع ما قد يكون سبب نقمته عليه

فاقعده عمرو وقال : « بلغنى اليوم من مطلــع على احوالك انك انما جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بى فهل هذا صحيح ؟ »

فنهض عبد الله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه : «كلايامولاى ، ان ما بلغته كذب وافتراء »

قال : « وما الذى جاء بكما اذن ؟ »

قال : « اما وقد سالتنى ، فاسمح لى بان اقول الحق وارجو منــك ان تصدقنى »

قال : « قل الصدق ولا تبال ، فلا بأس عليك الا اذا رايت فى كلامك عوجا فلا تلم الا نفسك »

قال : « اقسم برأس الامير انى لا اقول غير الحق ، ولكن حديثى طويل فهل ابسطه كله ؟ »

قال : « اجبنى اولا عن سؤالى موجزا ، فاذا رايت مايدعو الى التفصــيل طلبته . سالتك عما دعاكما الى المجىء الى الفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية ؟ »

قال : « انما جئت للبحث عن الغادر الطامع فى قتل الامام على »

قال : « ولماذا ؟ » . قال : « لــكى ابذل جهدى فى زجره وانقــاذ الامام من الموت ؟ »

قال : « كيف تفعل ذلك وانت اموى على ما اعلم ؟ »

قال : « لقــد الجــاتنى يا مولاى الى بعض التفصــيل . الم تعرف جدى ابا رحاب ؟ »

قال : « بلى اعرفه وقد سمعت بوفاته قريبا »

قال : « نعم انه مات وقد كان الى يوم مماته يكره عليا ويدعو الى قتــله ، ولكنه فى يوم مماته استحلفنى واستحلف ابن عمى سعيدا الا نبغى شرا بعلى، بل اذا راينا سبيلا الى الدفاع عنه ان نفعل ، فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا ان المتآمر من اهل مصر ، ولكنا لم نعلم من هو فجئنا للبحث عنه وردعه بالتى هى احسن . ولم نر سبيلا لمعرفته الا عن طريق اصحاب عين شمس لانهم على دعوة على »

فقال : « الم تكن عالما ايضا بتآمر رفيق ابن ملجم على قتلى ؟ »

فقال : « بلى ولولا ذلك لم استطع اطلاعك عليه »

قال : « وكيف لم تطلعنى عليه حال قدومك ؟ ألا تعلم أنك تعد شريكا مع القاتل ؟ » . قال ذلك ولحيته ترقص غضبا ولسان حاله يقول : « لقد لزمتك الحجة وتبينت خيانتك »

فقال : « نعم اعلم ذلك ، ولكن حلمك قد وسعنى من قبل فعفوت عما مضى وغمرتنى بانعامك ، فاذا رأيت أن تعود الى مطالبتى به كان لك الامر . ولكننى لا أخال مولاى الامير إذا عفا عن مذنب يعدل عن عفوه »

فلما سمع عمرو كلامه افحم وسكت

وشعر عبد الله عند ذلك بقوة انبثت فيه ، وثارت الحمية فى راسه فهم بان يستانف الكلام فابتدره عمرو قائلا : « لقد علمت انك عرفت خولة قبل ان أخطبها لك ، وانها كانت عالمة بخبر المؤامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها ؟ »

فارتبك عبد الله ولم يدر كيف يجيب ، ولكنه ما لبث ان استرد رباطة جاشه ، فاعتزم التزام الصدق على طول الخط فقال : « حاش يامولاى أن أخدعك ، فانى وراسك وكل غال عندى ، لم أكن اعرف هذه الفتاة قبل أن تذكرها لى »

قال : « وما تقول فى اطلاعها على خبر المؤامرة ؟ »

فتحير عبد الله فى الجواب ، ولكنه تخلص فقال : « ليس لى ان اجيب عنها ؛ فهى جاريتك ورهن اشارتك ، فادعها للمثول بين يديك واسألها ، ولا أشك فى انها تقول الصدق . ولكننى ارغب الى مولاى أن يخبرنى عمن وشى بنا اليه لعلنا نكذبه بين يديك »

قال : « ساجمعكم جميعا واسمع حجتكم جهارا ، فاذا سمعت اقوالكم حازيت كلا بما يستحقه . اذهب الى فراشك عندنا ، وعد الينا غدا » . قال ذلك ونادى « ياغلام » . فدخل حاجبه فقال له : « خذ عبد الله الى غرفة يبيت فيها الليلة واتنى به غدا متى دعوته » . فقال الحاجب : « سمعا وطاعة »

وخرج عبد الله والحاجب يسير امامه ، حتى دخل به غرفة فى دار الامير النمس فيها النوم ، ولكنه لم يغمض له جفن طول ذلك الليل

واصبح عبد الله حائرا ، لايدرى أيخرج الى الامير أم ينتظر حتى يدعوه اليه . ولبث جالسا حتى الضحى واذا بالحاجب قد جاء يدعوه الى مجلس خاص عقده الامير فى غير مكان مجلسه العادى ، فمشى وهو يفكر فيما عسى أن يكون امر تلك الجلسة ، ومن هو الواشى ، وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها

ولاحت منه التفاتة الى ساحة الدار ، فراى عندا تذكر أنه رآه فيما مضى ،

ولم يلبث ان عرف انه ريحان عبد قطام فاختلج قلبه وقال فى نفسه : « انها والله وشاية بهذه الخائنة ، واظنها أرسلته الى عمرو »

وما زال ماشيا يفكر فى ذلك وقد زلزل زلزالا عظيما ، حتى راى الحاجب دخل من باب ، فدخل هو فى اثره ، فاذا هو فى قاعة تصدرها الامير عمرو بن العاص ، كانه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء ، وعلى راسه عمامة كبيرة ، وقد قعد الاربعاء على وسادة من الدمقس ، وفى يده الدرة والسبحة معا . فتقدم عبد الله نحوه وحياه دون أن يلتفت الى سواه . فأمره عمرو بالجلوس ، فى فتور لم يعهده فيه فى مقابلاته الاولى . فجلس عبد الله فى بعض جوانب الغرفة ، وارسل نظره فرأى الى جانبه اباخولة ، وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد ارسلن النقاب على رؤوسهن فلم يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه . فعرف منهن خولة ولم يكن يجرؤ على التفرس فى الاخريين حياء . فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر ، فخطر له ان احداهما قطام ، جاءت هذه المرة لانفاذ حيلتها بنفسها . ثم ما لبث ان عرف الاخرى فاذا هى لبابة العجوز ، فتحقق انهما وشتا به وبسعيد . وكانت قطام قد خلعت الحداد على ابيها واخيها بعد قتل الامام علي ، فارتدت كساء من الحرير الاحمر الفاقع المزركش بالقصب ، من صنع فارس ، لايستطيع لبسه الا الاغنياء . وكان نقابها مزركش الاهداب يدل على بذخ وترف . وتصور عبد الله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم انها غلبت عمرا على رايه ، فاخذ يتاهب للدفاع

ومضت برهة والكل صامتون ، وعمرو ينظر الى الارض والدرة فى يده كانه ينكت البساط بها ، ويده الاخرى على لحيته يداعب شعرات منها بين انامله ، والاهتمام باد فى وجهه . ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامه ، فدخل فقال له : « لاتاذن لاحد » . قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

ثم التفت عمرو الى ابى خولة وقال : « اهذا جزاء احسانى اليك ياأباخولة؟ »

فوقف ابو خولة وقد عرته دهشة وقال : « ماذا حدث ياسولاى ؟ . انى ما زلت مخلصا لك ، خادما لمقاصدك »

قال : « ربما كنت كذلك ، ولكن خولة هذه (واشار اليها) تواطىء الناس على قتلى ، وتسعى فى انقاذ ابن ابى طالب »

فلما سمع ابو خولة قوله ، مشى مسرعا حتى امسك ابنته وقال : « انى لا اعرفها الا جارية من جوارى مولاى ، فاذا ارتكبت شيئا من ذلك فانى اذبحها بين يديك » . قال ذلك وجذبها كانه يريد تقديمها لعمرو

فقال له عمرو : « عد الى مكانك ، ودعها تتكلم ، فانى لا اريد ان اعاقبها الا بعد مقاضاة ، فاذا صح ما قيل عنها كان القتل أخف قصاص لها »

فلما سمع عبد الله تلك اللهجة الشديدة ، اختلج قلبه فى صدره ، وخاف عاقبة تلك الجلسة ، ولكنه تجلد وصبر

دعوى قطام على خولة

ثم التفت عمرو الى خولة وقال : « ما قولك يا خولة ؟ »

فوقفت وقالت بصوت رائق وجاش ثابت : « ماذا أقول يا سيدى ؟ وأنا لا أعرف التهمة التى وشى بها اليك الواشون . فاذا تنمعتهـا ذكرت لك الحقيقة ، ولك الأمر بعد ذلك ، فاذا استوجبت القتل فما أنا خير ممن قتل من رجال الاسلام فى هذه الفتنة ! »

فعجب عمرو لتلميحها الى الأحداث التى وقعت اخيرا فقال لها : « مالك ولهذا الكلام يا خولة ؟ قولى ما جوابك عن سؤالى »

قالت : « اذا كان الأمير حرسه الله قد جعل دمى حلالا ان ثبتت التهمة على فلا أقل من أن أسمع التهمة الموجهة الى »

قال : « صدقت وسأمد لك فى حبل الدفاع حتى تبدى كل ما لديك منه ، ولا اظنك الا مقرة بجنايتك ، لأنها ثابتـة ثبوت النور فى النهار » . قال ذلك ثم أمرها بالجلوس ، فجلست

فقال عمرو وقد وجه حديثه الى قطام : « ما قولك يا قطام فى خولة ، وما تعرفينه عنها ؟ »

وكانت قطام لما ارتاح بالها من أمر على وقتله ، وعلمت مما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة أنها تحب سعيدا وهى التى وجهت عبـدها معـه واستحثته فى الوصول الى على قبل انقضاء الأجل المضروب لقتله ، قد حملتها الغيرة ، وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذى فطرت عليه ان تاتى الفسطاط لتشى بها وبسعيد ، وهى لا تشك أنها تثبت الخيانة عليهما فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة فى عينيه ، فتقيم عنده مكرمة او يتزوجها أحد أبنائه . وكان عمرو يعرفها من قبل ، فأسرعت الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها ، فوصلت اليها أمس ، واسرعت الى عمرو وبشرته بمقتل الامام على ، ووشت اليه بخولة وانها كانت متواطئة مع سعيد على انقاذ الامام على ، وأنهما كانا يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنهـا ، وقد كانا يستطيعان لو اخلصا له أن يطلعاه عليها . فأعارها عمرو اذنا صاغية ، وبعث الى عبد الله كما تقدم . ثم رأى من الحزم أن يجمعهم ويسمع اقوالهم قبل اصداره حكمه

فلما قالت خولة قولها ، وطلب عمرو من قطام أن تبسط التهمة ، نهضت ومشت خطوتين نحو الأمير ، وثوبها المزركش يجر وراءها تيها وبذخا . ثم وقفت وقالت بلسان مبين : « أما ما يسألنى الأمير عنه فلا أحتاج فى اثباته الى دليل. وتفصيل الأمر أن مولاى الأمير يعلم اخلاصى له ورغبتى فى خدمته؛ حتى اننى عندما سمعت بمجتمع العلويين فى عين شمس بعثت اليه رسولا يخبره خبره . ولو لم أجد من أبعثه فى تلك المهمة لجئت بنفسى . ولم أذكر هذا الدليل الصغير الا تدليلا على اخلاصى . أما خولة واطلاعهـا على خبر المؤامرة فأمر لا شك فيه لانى أعلم علم اليقين أن سعيدا ورفيقه هذا (وأشارت الى عبد الله) لما قدمنا الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة ، وقد سمعت ذلك منهما باذنى . وهما انما أتيا للاجتماع بالعلويين . وبعثت يومئذ عبدى بخبر ذلك الى مولاى الأمير ، فلما عاد عبدى أخبرنى أن جند الأمير قبضوا على العلويين ، وان عبد الله وسعيدا فى جملتهم . ولم يكن يعلم ان سعيدا نجا بمساعدة خولة هذه . اما أنا فانى عرفت ذلك لما عاد سعيد الى الكوفة مسرعا ، لاطلاع على بن ابى طالب على خبر المؤامرة ، غيرة منه عليه . وقد ترك حياة الأمير عمرو بن العاص فى خطر . وكان رفيقه فى عودته بلالا خادم خولة هذه ، فانه صحبه الى الكوفة ، وهناك التقيا وعبدى ريحان ، واتضح له من خلال الحديث أن بلالا وخولة عالمين بسر الأمر . ولما لم ينجح مسعاهما فى انقاذ على ، قنعا بأن يكون مولاى حرسه الله قد أصيب بما أصيب به ذاك . ولكن الله سبحانه وتعالى انقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته. فترى يا مولاى مما قدمته ان خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة ، كما كان يعرفها عبد الله وسعيد ، فلو كانت مخلصة لمولانا الأمير ما كتمتها عنه »

فقال عمرو : « وما الذى يثبت لنا أن سعيدا وعبد الله كانا عالمين بالمؤامرة على قتلى لما أتيا الفسطاط ؟ »

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة ، فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرته هى قائلة : « لا شك أنهما كانا عالمين لأنهما أخبرانا بها ليلة سفرهما الى الفسطاط »

▭

كانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . أما عبـد الله فانا لعن الساعة التى أتت فيها تلك الخائنة ، وخاف على خولة أن تتلعثم أو تفحم بالأدلة التى قامت على اتهامها

أما أبو خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضبا ، وصاح فى خولة بأعلى صوته : « الله عليك يا خائنة ، لقد فهمت الآن تلاعبك ونفاقك»

ثم التفت الى قطام وقال : « متى لقى عبـدك عبـدى مع ذلك الرجل فى الكوفة ؟ »

قالت : « ليلة ١٧ رمضان »

فاطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها : « لقد انكشف لى القناع الآن وعلمت سبب سفر بلال ، فقد ارسلته مع حبيبك ليساعده على انقاذ ابى تراب (على بن ابى طالب) . وقلت لى : (انه فر بالجملين) . والواقع انه اخذهما معه ليركب هو ورفيقه » . ثم التفت الىعمرو وقال : « ان ابنتى يا سيدى تستحق القتل ، فاقتلهـا او دعنى اقتلها بين يديك »

فوقف عبد الله وقد تارت فيه الغيرة على خولة ، وهو يظن سكوتهـا خوفا او ارتباكا ، لانه لم ير ملامحها من وراء النقاب ، فامسك اباها وقال برزانة وسكينة يخاطب عمروا : « التمس من مولاى الأمير وقد امر ان تكون خولة زوجة لى ، ان يوقف اباها عند حده ، فهو الآن لا يملك من امرها شيئا . اما اذا اقترفت هى ذنبا يستوجب قصاصا فالأمر فيه لمولاى وليس لاحد سواه »

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ، ولكنه احب ان يسمع دفاعها ، ورأى عبد الله يتكلم بحق وعدل ، فقال لابى خولة : « دع خولة فانت كما قال عبد الله لا تملك من امرها شيئا »

فتنحى ابو خولة وهو يلهث ويدمدم ، ولحيته ترتعش على صـدره . وتنحى عبد الله ايضا وخولة لا تزال واقفة . اما قطام فقد ازاحت خمارها فبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها

فقال عمرو : « ما بالك يا خولة لا تدافعين عن نفسك ؟ . اليس ما قالته قطام عنك صحيحا ؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلى ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل عاونت سعيدا على انقاذ الامام على ، فارسلت معه خادمك وجليك ؟ »

قالت : « نعم كل ذلك صحيح »

فتعجب عمرو وسائر الحاضرين من صراحة اقرارها ، وقد كانوا يتوقعون انكارها او تلعثمها او سكوتها . فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها : « وكيف تظهرين الغيرة على صاحب الكوفة (على) مع علمك ان اباك لا يريد ذلك ، ثم لا يخطر ببالك ان تخبرى اباك بالمؤامرة على قتلى لـكى يطلعنى عليها ؟ . الا تعلمين ان عملك هذا يعد خيانة تستوجبين عليها القتـل ؟ . وها انى لا ازال اطيل لك حبل الدفاع لاسمع كل اقوالك ، فاخبرينى كيف

تكونين على غير ما يريده أبوك وأمير البلاد ؟ وكيف تسعين فى انقاذ على بن ابى طالب ولا تسعين فى انقاذ امير مصر ؟ »

وقبل ان تهم خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة : « ارى مولاى الامير يتعب نفسه بما لا طائل تحته . هل بعد اقرارها الصريح شيء ؟ . وهل لهذه الخائنة من دواء الا القتل ؟ »

قالت خولة وهى تنظر الى قطام شزرا : « سوف يتضح من هى الخائنة ، وقد كان يجدر بك التادب فى حضرة الأمير ، فانه اعلم منك بقواعد الحكم »

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو وقالت : « ارجو من الامير ان يطلق للسانى الحرية لاقول كل ما يجول فى خاطرى »

قال : « قولى ما بدا لك »

قالت : « اما سبب مخالفتى ابى فى رايه وتحزبى للامام على ، فلأنى صادقة مخلصة فى فكرى وقولى ، وهو المنحرف المتقلب . وما كنت لاصف ابى بهذا العيب لو لم يضطرنى الى ذلك »

قال عمرو : « وما معنى هذا ؟ »

قالت « يعلم مولاى الأمير أن أبى ربى فى نعمة الامام على ، وانا فى حجره ، مع ايماننا بأنه ابن عم الرسول (صلعم) وانه على الحق فى اعماله » . فاراد أبوها أن يقطع حديثها ، فاعترضه عمرو والزمه السكوت فقالت : « فلما كانت وقعة صفين كان ابى فى جملة من خالفه من الخوارج فى امر التحكيم . فهو الذى انحرف عنه . أما انا فظلت على رأيى ولا ازال عليه الى اليوم »

فقال عمرو وهو معجب بشجاعتها : « ولكن عليا شارك الجهال فى قتل الخليفة عثمان ، فقتلوه ظلما ونحن انما قمنا نطالب بدمه »

قالت : « اما مقتل الخليفة عثمان فارجو من مولاى الأمير الا يلجئنى الى الخوض فى شأنه ، لانى ربما اضطررت الى ما اتجنب ذكره »

قال : « وما الذى يخيفك بعد ما ابديته من الجرأة »

قالت : « يخيفنى غضب الامير لامر يعلمه »

قال : « قولى كل ما يبدو لك ولا تخافى »

قالت : « اما مقتل الخليفة عثمان فلا اظن مولاى عمرا الا من الراضين به »

فبغت عمرو وقال : « كيف تقولين ذلك يا خولة ؟ »

قالت : « الم يكن مولاى فى جملة المحاصرين لعثمان ؟ الم تقل له : (قد ركبت يا عثمان امورا ركبناها معك ، تب يا عثمان وارجع الى الله) . فاسمعك

هو كلاما جارحا . ثم لما قال لك : (انى تائب) . قلت له : (رأيناك تتوب ثم تعود) .. »

قال : « وهل يؤخذ من ذلك أنى كنت اريد قتله ؟ »

قالت : « كلا ولكنه يدل على أنك كنت ناقما عليه »

قال : « انما كنت ناقما عليه ليرجع عن أعماله ويبقى على خلافته »

قالت : « لو كان هذا قصدك فقط لما فرحت بقتله »

فذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الأمور فسألها : « وما دليلك على ذلك ؟ »

قالت : « دليلى قريب اذا أمننى الأمير قلته »

قال : « قولى »

قالت : « الم تكن فى فلسطين يوم قتل عثمان ؟ فكنت اذا لقيت احدا حرضته على قتله ؟ الم تحرض عليا وطلحة والزبير عليه ؟ . ثم لما جاءك رجل اخبرك بمقتل عثمان ، ألم تقل : (أنا عبد الله اذا حككت قرحة نكأتها) ..؟ »

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بأمور كان يود كتمانها ، ولكنه كان قد أمنها . وكان داهية يحول الكلام كيف يشاء فقال لها : « لقد أعجبنى دفاعك يا خولة ولكننا لسنا فى معرض الدفاع عن على أو عن عثمان ، ولا يهمنا انحرافك أو انحراف أبيك ، وانما يهمنا اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلى ثم سكوتك الى آخر ساعة وأبوك بين يدى كل يوم فكأنك اشتركت فى المؤامرة » . قال ذلك وهو يحسب أنه سد عليها أبواب الدفاع . وكان اشد الناس خوفا عليها عبد الله وقد خيل اليه أنها لم تعد تستطيع دفاعا بعد اقرارها السابق

اما هى فهمت بالكلام فاذا بقطام تقول : « انى لأعجب من حلم الأمير ، وما يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحا »

فلم تعبأ خولة بكلام قطام ولكنها أجابت عمرا قائلة : « انى لا انكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامى بأمر الخوارج وموافقة أبى على تأييد أمركم وتصديق دعواكم ودعوى معاوية من انكم على الحق ، وقد قدمت لولاى أنى فعلت ذلك وانا على دعوة الامام على فذنبى من هذا القبيل لا يعد شيئا بالنظر الى ذنب هذه المرأة (وأشارت الى قطام) التى انما جاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضنا بحياتك فاتهمتنى بالخيانة لأنى كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم اخبرك بها . فما الذى منعها هى عن اخبارك بذلك يوم ارسلت عبدها عبد السوء للوشاية بأصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المرأة صادقة فى دعواها الم تكن هى أولى منى باطلاعك على ذلك الأمر ؟ اسألها وانظر فى جوابها »

فانتبه عمرو وكأنه صحا من ذهول فرأى خولة على حق فى دعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جوابا . فقال لها :

« ما تقولين يا قطام ؟ لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة »

فارتبكت واجابت مترددة وقالت : « لأنى لم أكن عالمة بخبرها يومئذ »

فظهر لعمرو التلاعب فى كلامها ، ولكنه اراد تحقق ذلك فقال لها :

« ولكنك قلت الآن أنك سمعت خبر المؤامرة منهما ، فهل سمعتيه قبل ارسال عبدك الينا او بعده ؟ »

فانخدعت قطام بسؤاله فأجابت على الفور : « لم أسمعه الا بعد سفر عبدى وكنت عازمة على ارسال غيره فلم أتمكن لمشاغل انتابتنى »

فتقدم حينئذ عبد الله وهو يكاد يرقص فرحا بخذلان قطام وقال : « ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة الا بعد سفرنا ، لأنه انما قدم الفسطاط ليخبر الأمير بخروجنا من الكوفة »

فأشار عمرو اليه فسكت ، وعاد هو الى السؤال فقال : « ان هذه العجوز ذكرت أنكما سمعتما الخبر منهما ليلة سفرهما . فما تقولين ؟ »

فغلب الحنق على قطام فقالت : « هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتد بقولها »

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة ، وهى تعتقد فضلها عليها فقالت لها : « أنا لم أقل ذلك الا بعد قولك ، تبا لك من خائنة . كيف تقولين ان الخرف غلب على وأنت انما غلب عليك النفاق ؟ »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعى ما تقول لفشلها وخجلها فقالت : «اخرسى يا مجنونة ولا تتكلمى بين يدى »

فقالت لبابة : « بل أنت المجنونة وأنت الخائنة ، واذا لم تلزمى حدك اطلعت الأمير على سرائرك وفضحت أمرك »

فقالت : « وماذا عسى ان تقولى وأنت خادمة لا يعتد أحد باقوالك ؟ »

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام فى شر أعمالها ، فأرادت ان تخلص نفسها وتنجو بحياتها ، فلم تر آهون عليهـا من التخلى عن قطـام بفضح أسرارها فقالت على الفور : « ان أسرارك كلهـا فى يدى ، واذا اذن مولاى الأمير كشفت له عن كل شىء »

فسرت خولة وعبد الله بذلك الخصام . أما عمرو فرأى لدهائه وتعقله ان خولة ممن يحرص على صداقتهن ، وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها . وأما قطام فانها اذا اخلصت له اليوم لا يأمن ان تخونه فى الغد فقال للعجوز : « قولى ياخالة ماذا تعرفينه ؟ »

فاخذت لبابة تسرد حديث قطام مفصلا من أوله الى آخره ، والكل مصغون صامتون ، ففضحت اسرارها ، وعرف عمرو ان ارسالها عبدها اليه لم يكن حبا له ولا نصرة لحزبه ، بل انتقاما من سعيد.وعبد الله . وتبين لديه ان هذين انما اندفعا للدفاع عن على بوصية جدهما ابى رحاب ، واتضح له جليا ان قطام خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها ، وان بقاءها على قيد الحياة شر على العالمين . ولم يكن اعتقاده فى لبابة بأحسن من ذلك لانه رأى خيانتهما رأى العين فصمم على التخلص من كلتيهما

وكانت قطام فى أثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم ، وقد جمد الدم فى عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت فى أول حديث لبابة تهم بتكذيبها وعمرو يسكتها ، ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو : « يا غلام » . فلما جاء حاجبه امره ان يسوق فطام وعجوزها الى السجن

▭

فلما خرجتا من المكان ساد السكوت هنيهة ، وقد غرق عمرو فى التفكير فى خولة وشهامتها وصدق مودتها فرأى أنها إذا كانت على دعوته لا يخشى ضررها بل قد تكون أكبر عون له اذ يندر مثلها بين النساء ، وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام على لم يبق لها سبيل لنصرته ، فلا مانع يمنعها من الاخلاص له هو ، ولا سيما اذا عفا عنها وعن زوجها عبد الله

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلا : « والآن ما قولك ياخولة ، ما الذى نصنعه بك ؟ »

قالت : « لا أبالى يا مولاى أن تصنع بى ما تصنع بعد أن بسطت لك الحق فقد صدقتك القول ، فاذا أمرت بقتلى فانى لا أزيد عدد الموتى ولا أقلل عدد الاحياء ، ولا فائدة من بقائى ولا ضرر من مماتى ، وقد ذكرت لك فى أول حديثى انه قد قتل ودرج تحت التراب من لا أقاس بأنملة من أنامله . فهل انا أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان ؟ أم أنا خير من ابن عم الرسول ؟ (صلعم) . فاذا شئت فاقتلنى وأرحنى من حياة لاعدل فيها ولاحق. ولكننى اطلب اليك اذا قتلتنى ألا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة » . قالت ذلك ودمعت عيناها

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جأشها فقال لها : « واذا عفوت عنك؟ »

قالت : « واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام ، وتكون حياتى هبة من عندك»

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدى عمرو وقال : « أرجو من مولاى إن

يهبني حياة هـذا الملاك الطاهر ، كما وهبني حيـاتي فتكون يدا تضاف الى أياديه السابقة »

وكان ابو خولة واقفا وقد سحر بما ابدته ابنته من الحميـة والشـهامة ، وخجل لانه لم يكن صادقا في اخلاصه لعلي مثلها . فلما راى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضا وقبل يدي عمرو وقال : « لقدكنت ياسيدي اشد نقمة منك على خولة ، ولـكنني اراها والله خيرا مني ، وارانى اصـغر منهـا فالتمس لها العفو ايضـا » . قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها : « قبلي يد الامير واستغفري لذنبك » . ففعلت

وتصافح أبو خولة وعبد الله ، وعادا الى مقعديهما ، وقد تذكر عبد الله ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة ، فقال في نفسـه : « انها فرصة لاينبغي ضياعها » . ثم خاطب عمرا قائلا : « اما وقد وهبتنـا حياتنا جزاء لصـدق لهجتنا ، فلا يسعني والحالة هذه الا ان اتم الصدق بكشف سر لايزال مكتوما »

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بشان سعيد ، فخفق قلبهـا وغلب الحياء عليها ، فانزوت في بعض جوانب الغرفة

اما عمرو فقال لعبد الله : « قل ما بدالك »

قال : « انت تدعوني الآن زوج خولة ، وما انا والله الا اخوها »

فبغت عمرو وابو خولة ، وقال عمرو : « كيف ذلك وقد عقد قرانكما ؟ »

قال : « نعم انها زوجتي في الظاهر ، ولكنها لاتزال بكرا وقد اخيتهـا فهي اختي بعهد الله والرجل لايتزوج اخته »

فازداد استغراب عمرو وقال : « وكيف ذلك ؟ افصح يا عبد الله »

قال : « ان خولة احبت ابن عمي سعيدا قبلي ، ولابد انكم لحظتم ذلك من خلال حديث قطام ، ولكنني لم اعلم ذلك الا بعد عقد قراننا ، ونظرا الى حبي الشديد لابن عمي ، وقد كفلته لدى جدي ابي رحاب ، فقد امسكت نفسي عن خولة وآخيتها . واعترف لمولاي الامير ، اننا تواطانا على الخروج بحيلة من الفسطاط الى الكوفة وسعيد ينتظرنا هناك فازف له خولة »

فلما سمع عمرو كلامه ازداد اعجابا بشهامته وصـدق مودته ، ونظر الى ابي خـولة كانه يستطلعـه رايه في الامر ، فاذا هو لم يكن اقل اعجـابا بتلك الشهامة ولكنه لم يتمالك عن ان ينهض ويضم عبد الله الى صدره وقبل راسه وقال : « بورك فيك من صديق صادق ، اما وقد صارت خولة اختا لك فاقض لها ما انت قاض »

فقال : « اذا امر مولاي بعثنا الى سعيد في الـكوفة مع بلال العبد ، فيقدم الينا »

فقال عمرو : « على الرحب والسعة » . وأمر غلامه أن يمد عبد الله بما يريده ليتمكن من استقدام سعيد

فجهز عبد الله رسولاوكتب الى سعيد يستقدمه ويبسط له واقعة الحال، وأوصى الرسول بأن يجعل طريقه على دمشق ، فسعيد كان فيهـا فلعله لا يزال هناك

واستأذن أبوخولة وابنته فى الانصراف الى بيته ، فأذن لهما فخرجا وخولة تفكر فى قطام ، وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ، ولكنها لما رأت ماكان من فشلها انفثأت حماة انتقامها . على أنهـا تذكرت أن بلالا أقسـم أن يقتلها ، فاهيك بحقد سعيد عليها ، فعولت أن تستعطفه لكى يعفو عنها ويكتفى بما أصابها من الفشل والاهانة

وأما عبد الله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار ، وبات تلك الليلة ضيفا فى دار الامير ، وقد ارتاح باله من كل جهة . ولكنه كان يفكر فى قطام وما أصابها من البلاء وكيف سيقت الى السجن مهانة وقد انكشف أمرها وافتضح سرها ، فخفت نقمته عليهـا واكتفى بأن تبقى مسجونة حتى يرى مايكون من أمرها بعد قدوم سعيد

وفى الصباح التالى بعث عمرو اليه ليتناول الطعام معه فذهب ، وفى اثنـاء تحدثهما فى شأن قطام وعجوزها ، ذكر عبد الله ما يجول فى خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو : « والله انه حلم لم يسبقك اليه معن . وما ظنك بخولة هل تقول مثل قولك ؟ »

قال : « لا أظنها الا على رأيى »

احب عمرو ان يعرف راى خولة فى قطام فلما جاءت سالها عن رايها فيها ، فقالت مثل قول عبد الله

فقال لهما عمرو : « انى والله لاعجب من هـذا التوارد فى خواطركما ، وانه دليل صريح على طيب عنصركما ، وقد كنت قاتلها لواردتما قتلها لانها شريرة تستحق القتل . فارى اذن ان اسجنها فى سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنته يداها »

ثم نادى غلامه فحضر فامره ان ينقـل قطـام الى سـجن مظلم وان ياتى بالعجوز اليه .

فذهب الغلام ثم عاد مضطربا وجلا

فقال له عمرو : « ما وراءك هل فعلت ما امرت به ؟ »

قال : « لا يامولاى » . قال : « ولماذا ؟ »

قال : « لانى وجدت الغرفة مفتوحة ، وليس فيها غير جثة المراة العجوز»

قال عمرو : « وقطام ؟ » . قال : « لم اقف لها على اثر »

فصاح عمرو : « تبا لتلك اللعينة الخائنة ، هيا بنا ننظر فى الامر بانفسنا »

ونهض لساعته ، وتبعه عبد الله وخولة ، حتى اتوا باب الحجرة التى كانت قطام مسجونة فيها . فاذا بالعجوز صريعة لاحراك بها . فارسـل عمرو الى طبيبه ليرى رايه فى وفاتها فجاة ، ففحصها هذا وقال : « انها ماتت خنقا بعد جهاد وعراك فان فى فمها حجرا ملفوفا بمنديل سد القـاتل به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الحراس فينكشف امره »

فقال عمرو : « ومتى كان ذلك ؟ »

قال : « اظنه وقع فى منتصف الليل او نحوه »

ففحص عمرو باب الحجرة وعاين خلفه ، فتبين له انه خلع من الخارج لانه راى آثار الاداة التى عولج بها ظاهرة فى ظهر البـاب فقال : « يظهر ان لقطـام

شريكا ، لأن يدا عالجت الباب وفتحته ، فمن فعل ذلك ياترى ؟ »

وكان عبد الله يشارك عمرا فى الفحص ، فلما سمعه يشير الى خلع البـاب انتبه لساعته وقال : « لقد كشفت الغامض وعرفت القاتل ، انه ريحان عبـد قطام ، فقد رايته فى دار الامير امس ، ولم اسمع ان الامير امر بالقبض عليه ، فلعله اندس وخلع الباب وساعد سيدته على قتل العجوز انتقاما لها أو خوفا من لسانها »

فقال عمرو : « لقد اصبت ، انه ذلك العبد بعينه ، ثم امر بالجثـة فحملت ودفنت ، وعاد الجميع آسفين لفرار تلك الخائنة من ايديهم

وامر عمرو رجاله ان يبحثوا ويأتوه بها

اما بلال فانه لما بعثه عبـد الله لينتظره مع سعيد فى الـكوفة ، سـار الى دمشق ولقى سعيدا فروى له ما قر القرار عليه ، واستنهضه للمسير الى الكوفة ، فاستمهله يومين ريثما يقضى بعض حوائجه . وفى اصيل اليوم الثانى حملا احمالهما وخرجا على جليهما ، على ان يبيتا فى غوطة دمشق ويستانفا سفرهما الى الكوفة فى الصباح

وبينما هما أمام باب المدينة المؤدى الى الغوطة اذ لقيهما رسول عبد الله القادم للذهاب بهما الى الفسطاط ، وهو يعرف بلالا فاوقفه ودفع الكتاب الى سعيد. فقراه وهو لا يكاد يصدق لعظم فرحه بالقبض على قطام وبرضاء عمرو وشوقه الى خولة

واما بلال فاسف للقبض على قطـام فى غيبته ، مخافة ان يعفى عنهـا او ان يقتلها احد سواه وهو يريد ان يتولى أمرها بيده

فقال سعيد للرسول : « كنا فى طريقنـا الى الغوطة لنبيت فيها ونصبح وجهتنا الكوفة ، فارى بعد ان حملنا احمالنـا ان نظل فى طريقنـا الى الغوطة فنبيت هناك ، ونصبح فى الغد نلتمس الفسطاط ، فساروا جميعا حتى وصلوا قبيل الغروب الى بحيرة صغيرة حولها اشـجار الحور تهب عليها ريح ناعمـة فيسمع لاغصانها حفيف يمتزج بتغريد الطيور مما يشرح الصـدر ولا ترى مثله الا فى تلك الغوطة

وبعد المغرب حطوا احمالهم ، واشتغل بلال ورفيقه باعداد العشاء

وكان بلال يعرف صـاحب البسـتان ، وقد نزل عليـه ليـلة قدومه من الفسـطاط ، فترك سعيدا والرسول ومشى بين الاشـجار فى الظـلام يتلمس طريقه الى بيت البستانى فما لبث حتى ضل الطريق لتكاثف الاشجار ، وجعل يتلمس على غير هدى ويزداد بعدا عن رفيقيه حتى اصبح بينه وبينهما ميل وبعض الميل وهو لا يدرى ، فوقف ينظر من بين الاشجار لعله يرى نورا أو

يتبين المنزل . ولبث برهة يعمل فكره ويحاول ان يعرف الجهة التى ترك فيها رفيقيه لكى يعود اليهما

وفيما هو فى ذلك اذا بصوت أجفله وهو هدير جمل ، اعقبه هدير جمل آخر، فعلم ان القادمين ركب امسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليستأنس بهم ويسألهم عن الطريق.. فاسند ظهره الى شجرة وتطاول بعنقه ليتحقق الجهة التى منها الصوت . فسمع لغطا وكلاما فأصاخ بسمعه فاذا بقائل يقول : « دعنا ننزل هنا ياريحان ، فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لانى اخاف أن يشك فى امرنا اذا دخلناها فى الظلام ، الا تظننا فى امان هنا ؟ »

وسمع الجواب : « نعم يامولاتى »

فاقشعر جسمه عند سماعه ذلك الصوت اذ عرف فيه صوت قطام تخاطب ريحان وهى خائفة ، وتأكد انها آتية فرارا من سجن الفسطاط

وكانت قطام لما أرسلت الى سجنها حقدت على لبابة كما مر . ونظرا الى ما فطرت عليه من اللؤم والقسوة لم يكن اسهل عليها من قتل لبابة. وكان ريحان يومئذ واقفا فى دارالامارة ، فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علم انهما فى ضيق ، فراقب القوم ببصره حتى عرف الحجرة التى حبسوهما فيها . واعمل ذهنه لانقاذهما ، وكانوا عند وصولهم الى الفسطاط قد نزلوا فى دار الامارة فاحتال فى اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج الفسطاط .

ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام واخذ يعالج الباب، فسمع لغطا فاذا هو خصام احتدم بينها وبين خادمتها. فاستعجل فتح الباب بالعنف ودخل ، فلما رأته قطام اشارت اليه ان يساعدها فى قتل لبابة فصاحت هذه : « تبا لك ياظالمة يافاجرة ، انى أتوب الى الله عما ركبت فى سبيلك من الذنوب. واما انت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و » . فابتدرها ريحان فسد فاها وخنقها ، وخرج بسيدته من باب كان قد اعده باسترضاء بوابه. فلما بعدا عن الفسطاط تحول بها الى مامن كان قد اعده عند موقف الجمال . فركبا وهى تثنى على شهامته . فخيرها فى الجهة التى تسير اليها فاختارت دمشق ، لان فيها نفرا من اهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد وقعة النهروان وفشل الخوارج واقاموا بدمشق

فسارا حتى اتيا الغوطة فى تلك الليلة بعد وصول رسول عبد الله ببضع ساعات كما مر

فلما تاكد بلال انهما قطام وريحان لم يعد يقر له قرار من فرحه . وقال فى سره : « لقد أجاب الله سؤالى . والله انى سأذيقها الموت بيدى هذه . وجس لثته فرأى الخنجر فيها . فلبث مستظلا بالشجرة ليرى ما يكون منهما . فاذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى أتيا الى قناة لانحدار مائها خزير وبجانب ة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة فى أثناء النهار . فنزلا عن الجملين . ريحان القبة كالعادة واوقد النار ثم قال لمولاته : « استريحى ياسيدتى "ستانى وآتى اليك ببعض الزاد والفاكهة وأنت هنا فى مأمن ولا تطل الغياب » . فانصرف

▭

وكان بلال واقفا ينظر اليه . فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هى قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ، ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفى أطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت فى اثناء المشى سمع لها رنين . ومشت الى حافة القناة ودماجها وخلاخلها تخشخش . فخاف بلال اذا أبطأ أن تفوته الفرصة ، فوثب عليها وهى تهم بالجلوس على حافة القناة وامسك بطوقها وجذبها اليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها . فصاحت : « ريحان » . وقبل ان تتم كلامها وضع بلال قبضته فى فمها وقال لها : « لم يبق لك فى هذه الحياة الا دقائق قليلة ، فاعلمى قبل ان تفارقيها انى بلال خادم خولة وسعيد ، وانى منتقم للامام على » . فأشارت اليه انها تريد الكلام فاستل الخنجر وصوبه الى عنقها وقال لها : «تكلمى بهدوء ، واذا رفعت صوتك أغمدت هذا الخنجر فى عنقك »

قالت : « ارحمنى يا بلال واشفق على حياتى »

قال : « لايرحمنى الله ان رحمتك ، فقد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل شابين من خيرة الشبان . ولكن حيلتك فيهما لم تنجح . واخيرا جئت الفسطاط لاغراء أميرها بخولة . . كيف ارحمك يا خائنة ؟ »

قالت : « ذلك قد مضى يا بلال وأنا تائبة بين يديك ، فاعف عنى ، ولك كل ما أملكه »

قال : « هل يتوب الهر ؟ ! . أما العفو عنك فوالله لو عرفت قصاصا أعظم من القتل لقاصصتك به ، لأن القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك »

فهمت أن تجيبه فأدرك أنها تماطله ريثما يعود ريحان

فقال لها : « اعلمى يا قطام انى قاتلك انتقاما للإمام على » . قال ذلك واغمد خنجره فى عنقها وأسرع فاحتز راسها وترك الجثة ولها شخير رن فى اذنيه إلى مسافة بعيدة . وكان لما راى القناة قد تعرف الطريق المؤدى الى مقر سعد فانسل بين الاشجار وقد امسك الراس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منه

▭

وكان سعيد ومعه الرسول قد استبطآ بلالا ، وشغلا عليه وقع اقدامه صاح سعيد فيه قائلا : « أين الفاكهة يا بلال ، لقد علينا الجوع »

فلم يجبه بلال، ولكنه ظل ماشيا حتى وقف امامه ورمى الجمجمة بين يديه وقال : « هذه فاكهتى »

فأجفل سعيد ونظر فاذا هو راس قطام باقراطه وضفائره ، فاستغرب الامر ، وسأله عن تفصيل الخبر

فقال : « ليس هذا وقت السؤال ، هلم نخرج من هذه الغوطة الآن ، فاذا امنا عيون الحكومة اخبرتكما الخبر »

فنهضوا ولم يذوقوا طعاما ، وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم ، وهم تارة يصفدون تلا ، او ينزلون غورا ، وآونة يغوصون فى الماء ، وطورا يدوسون الاشواك او تتصادم رؤوسهم واكتافهم بغصون الاشجار . حتى انتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر ، وتحققوا انهم امنوا العيون

جلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية ، وسعيد فى شوق شديد الى سماع تفصيل مقتل تلك المراة

فقص بلال حديثه وقلبه يرقص فرحا . واتماما لإسباب سروره اخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأها فيه ووضعها على المصطبة بين يدى سعيد وكان شعرها قد تجمد بالدم ، والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن أسنان كاللؤلؤ ، ومسحة الجمال لاتزال تتجلى فى محيا تلك المراة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء

▭

مد سعيد يده الى جبين جمجمة قطام ، ولمسه فاذا هو بارد كالثلج فقال : « آمنت بالله كأنه سبحانه وتعالى قد كتب لى ألا المس هذا الجبين الا وهو

ميت وقدكنت اشتاق لمسه منذ اعوام » . ثم وجه خطابه الى الجمجمة وقال « انت قطام بنت شحنة ؟ وقد جاز دهاؤك ومكرك على مئات من الرجال ابهاتين العينين فتنت ابن ملجم كما فتنتنى ؟ وبهاتين الشفتين اغريته بقتل الامام كما فعلت معى . انك ستلاقينه عاجلا فى مكان لا تخفى فيه خافية . فى مكان تنال فيه كل نفس جزاء ما قدمت »

ثم التفت الى بلال وقال : « ماذا نعمل بهذه الجمجمة ؟ »

قال : «نحملها الى الفسطاط لأضعها بين قدمى خولة ذلك الملاك الطاهر»

قال : « لا اظنها تسر بهذا ولاانا سررت به . وزد على ذلك ان هذه الجمجمة لاتصل الى الفسطاط الا بعد أن تنتن وتتصاعد منها رائحة تنفر منها النفس»

فأطرق بلال هنيهة أسفا لحرمانه حمل الرأس الى خولة ثم قال : « فاسمح لى اذن أن أحمل أثرا منها »

قال : « وما هو هذا الاثر ؟ »

قال : « اقطع الاذنين وفيهما الاقراط وأقص هـذا الشعر وفيه الضفائر الذهب »

قال : « لك ذلك فافعل »

ثم قرروا أن يستريحوا هنـاك ويتنـاولوا الغـداء ثم يبرحوا المـكان الى الفسطاط

▭

عاد ريحان من عنـد البستانى وقد أعد كل ما ترتاح اليـه سيدته من الفاكهة والاطعمة وأمر البستانى أن يشوى بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرا كشخير النائم وكانت قطـام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك . فقال فى نفسه لعلها غلبها النوم على أمرها من شدة التعب . ودنا منها فاذا هى بجانب القناة والظلام حالك والنار التى أوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها . فقال فى نفسه : « لاتبرن الشمع وأعد الطعـام ريثما تفيق » . فأنار الشمع . ولاحت منه التفاتة الى سيدته فرآها تتحرك فأقبل اليها فاذا هى لختلج اختلاج النزع وقد أصبحت جثة بلا رأس ، ورأى دمها قد عكر القناة . فبغت ولطم وجهـه ووقف لحظـة يفكر فيمن عسى أن يكون قد فعل ذلك ، فقال فى نفسه : « لابد أن يكون قد حدث هـذا بايماز من عمرو بن العـاص ، والقاتل قد فر الآن ولا سبيل اليه . فاذا أنا صحت وجمعت الناس تقع التهمة على رأسى »

فتحير فى امره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كانه يحاول ان يلتمس لنفسه عذرا اذا تخلى عنها . فراى انها اقدمت على جرائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والحلى الثمين ، وانه هو وحده يعرف مخبآتها فى الكوفة . فطمع فى الميراث وصمم على اغتنام الفرصة فهم بما عليها من الحلى فنزع الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها ، وجمع ما فى جيوبها وصناديقها من غالى الثمن وخفيف الحمل . وتركها غارقة فى دمها ولسان حاله يقول : « ذلك جزاء القوم الظالمين » . ودخل الشام فى الصباح التالى فاشترى اثوابا تنكر فيها ، وقصد الكوفة فاخرج مااخباته قطام هناك من الاموال ، وابتاع لنفسه ضيعة اقام بها

واعد البستانى الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز فى كيس من القش ، وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لانها كانت كريمة تعطى الناس بسخاء . ولكنه ما وصل الى الخيمة حتى راى الحال كما ذكرنا ، وليس هناك الا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها . فلا تسل عن رعبه لما رآها فى تلك الحال . فقال فى نفسه : « لا شك ان جماعة اقوياء تجراوا على هذا العمل ، وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بانفسهم ، واذا انا اظهرت هذه الجثة جلبت على نفسى البلاء ، فمالى الا ان احتفر لها حفرة اخفيها فيها »

فاشتغل بالحفر وهو يحاذر ان يراه احد او يسمع فاسه . ثم دفن الجثة واخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقى من الامتعة الى بيته ، وساق جملا كان باقيا هناك ، وكتم خبر تلك الحادثة عن كل انسان

طلاق . . وزواج

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا عليها من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو فى وسط المدينة كالبدر بين الكواكب ، فأرسلوا الرسول الى عبد الله لينبئه برجوعهم ، وأوصوه بأن لا يذكر له خبر قطام

وكان عبد الله قد خلا له الجو ، وصفا قلب الامير له ، ولكنه بقى مبلبل الخاطر على سعيد ، وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه ، وكلما لقى خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيدا وتمنيا سرعة وصوله ، وعبد الله يدبر اسلوبا يخبره به عن حقيقة حاله مع خولة

وفيما هو جالس ذات صباح فى غرفته بدار الامير ، اذا برسوله قد اقبل فصاح به : « ما وراءك ؟ »

قال : « ورائى سيدى سعيد وبلال »

قال : « واين هما ؟ »

قال : « تركتهما فى سفح المقطم قادمين ، وجئت لابشركم »

قال : « أهلا بالقادمين » . ونهض لساعته وخرج على فرس أسرج له ، ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين ، فترجل بلال للحال وهم بيد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله : « بورك فيك يا اسمر وبورك بشهامتك » . وهم سعيد بأن يترجل فأشار اليه عبد الله أن يبقى على جمله لينزلا معا فى دار الامارة

فساروا وسعيد يبتسم فقال له عبد الله : « ما الذى يضحكك ؟ »

قال : « يضحكنى اننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص ، وقد كنا بالأمس نحاذر ان يسمع بنا او يرانا »

قال : « لله فى خلقه شؤون » . ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر أن يسمعه احد : « لو أراد الله نجاح مسعانا ونجا الامام على كرم الله وجهه لما اهمنا النزول بهذه الدار »

فقال بلال : « لا تذكرنى بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسى ، ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عينى يضرب الامام بذلك السيف المسموم ، وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو اراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرهونة بأوقاتها »

قال : « ولكن الله سيجزى الظالمين ، أما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص ، وهو والحق يقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم »

▭

وبقيا فى مثل هذا الحديث حتى اقتربا من الدار فقال عبد الله : « لم أسمعك تذكر خولة . هل نسيتها ؟ »

فابتسم سعيد وقال : « كيف أنساها وأنا انما جئت التمسها »

قال : « وماذا تلتمس منها ؟ »

قال : « لا أدرى ... »

قال : « أظنك تدرى ، ألا فاعلم أن خولة الآن زوجتى ، وقد زوجنى بها عمرو »

فضجك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه ...

فتظاهر عبد الله بالجد وقال : « يلوح لى أنك لم تصدق قولى ، فاقسم بالله وتربة أبى رحاب أن خولة قد زفت الى ، وعقد قراننا على يد الامير . واذا كنت لا تصدقنى فاسأل كل من فى هذه الدار عن ذلك »

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الا أن قال : « وما يمنع أن تكون زوجة لك ؟ بورك لك فيها . ألست أخى ورفيقى وابن عمى ؟ »

قال ذلك وهو لايزال يشك فيما سمعه من عبد الله

ووصلا الى الدار ، فترجلا وسارا توا الى غرفة عبد الله ، وبعثا الى عمرو ينبئانه بقدومهما ، فأمر بأن يستقبل سعيد فى غرفة خاصة ، وبعث الى خولة وأبيها ، فلما جاءا أقبل عمرو الى الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجا ، فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه ، فرحب به ودعاه للجلوس

فقال سعيد : « اذا أذن مولاى فليأمر عبده بلالا بالدخول ليحضر هذه الجلسة »

فأمر بدخوله فانزوى فى بعض جوانب الغرفة متأدبا وفى يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خولة من تحت النقاب ، ويفكر فيما سمعه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدا قائلا : « أظنكم تتوقعون ان ترا قطام سجينة ؟ »

فقال سعيد : « نعم يا مولاى »

قال : « ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها اجراما بقتل خادمتها . وكنا قد أردنا استبقاءها مسجونة . أما الآن فاذا ظفرنا بها فلا قصاص لها عندنا غير القتل »

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام ، وقد ندم لأنه لم يصرح بالأمر بادىء بدء، وهم بالكلام فاعترضه بلال مستأذنا . فسكت فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال : « هل يأذن لى مولاى بكلمة أقولهـا ؟ » .
قال : « قل »

قال : « كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها ؟ »

قال : « نطمع الناس فى البحث عنها بمال كثير »

قال : « وكم تعطون من يقبض عليها ؟ »

قال : « نعطيه مائة دينار »

قال : « اتشترطون أن يؤتى بها حية ؟ »

قال : « سواء علينا . جاء بها حية أم ميتة »

قال : « واذا جاء بخبر قتلها »

قال : « نقبل منه ذلك على أن يأتينا بما يثبت موتها »

فأخذ بلال يحل الجراب وهو يقول : « فليأمر مولاى الامير باعطائى مائة دينار » . وما أتم قوله حتى أفرغ الجراب بين يدى الامير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه بأصبعه حتى وجد الأذنين وفيهما الاقراط

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو : « ويلك ما هذا ؟ »

قال : « هذا هو شعر قطام ملطخا بدمها . وهـذه اذناها واقراطهـا . واذا اخرجتموني جئتكم براسها . فانى انما تخليت عنه اجابة لأمر مولاى سعيد » . قال ذلك ووقف وهو يشير الى سعيد

فقال سعيد : « نعم يا مولاى ، انا اشهد ان بلالا قتل قطام وحده ، واحتز راسها وجاءنى به وهو ينوى حمله اليكم ، فاشرت عليـه بأن يكتفى بهذا الاثر تخلصا من نتن الرمة »

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فاشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فاعادها الى جرابه وتنحى

فقال له عمرو : « لك عندنا مائة دينار »

فشكر واثنى وقال : « انى اشكر مولاى الامير على نعمته واعترف بين يديه بانى لم اقتل هذه الخائنة لمال ، وانما قتلتها انتقاما للعدل » . واراد أن يفصل ما اجمله فانتبه الى انه لا يجوز ذكر الامام على فى المجلس فاكتفى بما قال

وتذكرت خولة ان اباها كان قد غضب عليها من اجل بلال ، فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضا ابيها عنه فقالت : « يابلال تقدم وقبل يدى سيدك». واشارت الى ابيها ، فتقدم بلال وقبل يده فلما هم القوم بالانصراف وقف عبد الله ووجه كلامه الى عمرو وقال : « اشهد ايها الامير ان امراتى هذه طالق منى ثلاثا » . واشار الى خولة

فادرك سعيد ان ما قاله له صحيح وانه كان قد عقد قرانه عليها . ولمح الامير عمرو الاضطراب على وجهه فقال : « طب نفسا ياسعيد انماكان الزواج صوريا وقد صح الموقف الآن بالطلاق » . والتفت الى ابى خولة وقال له : « انى اخطب خولة منك لسعيد ؟ »

فقال ابو خولة : « هى جاريتك يامولاى فاصنع بها ماتشاء »

فاطرقت خولة حياء ، وعندما آن الأوان عقد قران سعيد بخولة فى مجلس عمرو فبارك لهما وهنأهما بالزواج

وبعد أيام استأذن عبد الله ابن عمه سعيدا فى الذهاب الى مكة للاقامة بها مع ذويه ، وودع خولة والأصدقاء وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاش الجميع كل فى مقامه عيشة لا يشوبها كدر الا حين يذكرون مقتل الامام على . ثم حين سمعوا بعد ذلك عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابى سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بنى امية . وانما فعل الحسن ذلك حقنا للدماء ، ولم يتول الخلافة الا ستة اشهر ، فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق ، وبقى فيها الى انقضاء دولة بنى امية

روايات تاريخ الإسلام

صدر منها

فتاة القيروان	الانقلاب العثماني
الأمين والمأمون	العباسة أخت الرشيد
غادة كربلاء	استبداد المماليك
المملوك الشارد	أبو مسلم الخرساني
عروس فرغانة	شجرة الدر
عبد الرحمن الناصر	شارل وعبد الرحمن
عذراء قريش	أحمد بن طولون
فتح الأندلس	فتاة غسان
أرمانوسة المصرية	أسير المتهدي
جهاد المحبين	الحجاج بن يوسف
صلاح الدين الأيوبي	١٧ رمضان